و.. استسلم إبليس

مجموعة قصصية

تأليف

مروان الغوراني



الدار العالمية للنشر والتوزيع

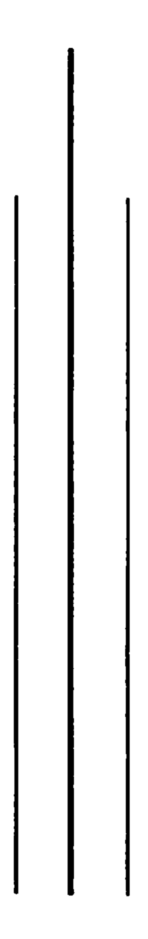
ليله عاصفه في
خيمة مسكونة

مجموعة قصصية

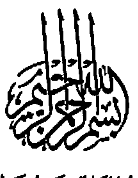
تأليف
مروان الغوراني



31 ش الصالحى - محطة مصر - الإسكندرية
تليفون : 002034970370 - فاكس: 002033907305
محمول: 01005406403
E - mail:alamia_misr@hotmail.com



واستسلم إبليس



واستسلم
إبليس

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع

٢٠١٣/٢٤٦١٤م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-014-1



الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٦٥٥٢١١٨ ٠٢/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+

E.mail: alamia_misr@hotmail.com

و.. استسلم

إبليس

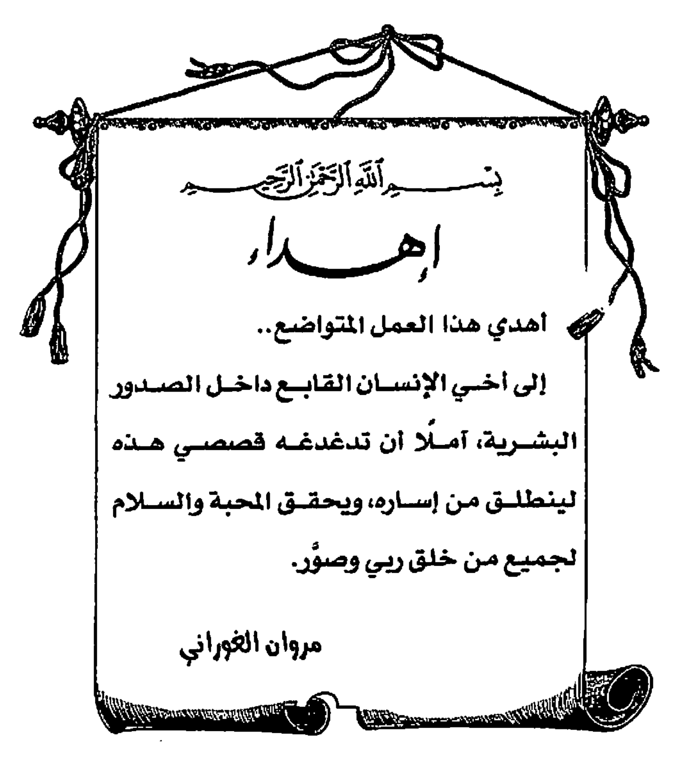
(مجموعة قصصية)

تأليف

مروان الغوراني



الدار العالمية للنشر والتوزيع



نَسِيَ الطِّينُ سَاعَةً أَنَّهُ طِينٌ

حَقِيرٌ فَصَالَ تِيهًا وَعَرْبَدْ

وَكَسَى الخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى

وَحَوَى المَالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ

يَا أَخِي لاَ تَمِلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي

مَا أَنَا فَحْمَةٌ وَلاَ أَنْتَ فَرْقَدْ

إيليا أبو ماضي

مُقَدِّمَة

عزيزي القارئ!

بصراحة أنا لا أحب كتابة المقدمات، وأحب الدخول في المواضيع مباشرةً، كما أنني لا أحب أن أوجه القارئ إلى ما أصبو إليه، لأعرض عليه رأيي ورؤيتي.

لذلك سأدع لك عزيزي القارئ حرية الإبحار بقاربك الخاص، لتطوف به على جميع جزري وبلداني مستطلعًا بنفسك ومكتشفًا، فترسو أين تشاء، وتبحر متى تشاء، حاملًا معك ما يطيب لك ويروق..

متمنيًا لك رحلة تجمع بين الفائدة والمتعة.

مروان الغوراني

١- أزمــة

السـيارة تنهـب الأرض نهبًـا، في طريقهـا مـن أضنه إلى إستنبول مرورًا بمرسـين، المناخ الساحلي يصب على جسدينا سيلًا من النسمات البحرية الدبقة، والشمس تقذف بها عندها لتلهب نهار ذلك اليوم من شـهر آب.. وتجعلنا وكأننا في أتون داخل تلك العلبة الحديدية المتحركة..

اسـترخيت عـلى مقعدي داخل السـيارة أعـب من جمال الطبيعة، أرقب بلدًا أزوره لأول مرة.. صليل سيوف، صهيل خيل، غبار يسد الأفق، صيحات فرسان.. محمد الفاتح يفتح القسـطنطينية.. جيـش السـلطان سـليم الأول يتجه بجيشـه الإنكشاري الجرار باتجاه الشام، حملات سليمان القانوني تتوالى عـلى الصفويين في العراق.. سلسـلة من السـلاطين تصطف كحرس الشرف تؤدي مراسم الاستقبال على مداخل مرسين الواحد تلو الآخر، بعضهم معتدٌّ بنفسـه وبعضهم خجلٌ من نفسه!..



حـرارة الجو ورطوبته الزائدة بخرت كل السـلاطين من مخيلتـي، وضاع علي النُّزول في قصور ضيافتهم بعد أن أوقف زميلي السيارة قرب حديقة أتاتورك المطلة على البحر قائلًا:

ـ مارأيك أن نستريح هنا قليلًا ثم ننطلق باتجاه أنتاليا؟..

جمـال الحديقـة وممراتهـا التي تنسـاب بين الزهـور ذات الألـوان الجميلـة، والأشـجار الباسـقة المنتـشرة بانتظـام في الحديقـة، أغرتنـي بالنُّـزول رغم حـرارة الجو ودبقـه.. تحرك تمثـال كـمال أتاتـورك ليسـتقبلني بوجـه نحاسي لا يتناسـب والزهـور المحيطـة به، عسـاكر بلبـاس البحريـة يتجولون في ممـرات الحديقـة، هـرب أغلب النـاس إلى بيوتهـم يتقون حر الظهيرة.. أشـار إلي أتاتـورك بأن أتخذ لي مقعـدًا تحت إحدى الشـجيرات الوارفة الظل، ثم رجـع إلى وقفته الأولى ووجهه النحاسي ينظر باتجاه الشـارع الرئيسي، وكأنه ينتظر رؤية شيء مـا.. رحت أمتع ناظـري بزرقة البحر الصافيـة، أرقب الموج الذي راح يتهادى بدلال كعروس تمشي الهوينى..

أشرعة.. قلوع.. سـوارٍ تعبث الرياح بها.. سـفن قديمة كثـيرة العـدد.. فرسـان يقفـزون بخفة السـعادين بـين تلك



لسفن، سيوف تتلامع، جلبة وصخب عظيمان، صيحات فرسان راعدة، دماء تصبغ زرقة البحر.. إنها معركة ذات السواري.. نداءات تعلو مرددة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ أزمة!.. أزمة!..

صحوت من شرودي على ذلك الصوت الطفولي وهو ينادي: أزمة!.. أزمة!.. طفل لايتجاوز السابعة من عمره يحمل طبقًا صغيرًا لم أستطع تمييز ما يحتويه.. قلت لصديقي باسمًا:

ـ اسمع ماذا يبيع؟.. إنه ينادي أزمة!.. أزمة!.. وهل تباع الأزمات هنا؟..

ـ دعنا نناديه فنرى ما هي هذه الأزمة!..

قنصوه الغوري يغتسل بدمه، يقع قتيلًا في مرج دابق، فاتحًا جرحه للشمس.. تسقط حلب.. سليم الأول ينتشي يتجه نحو دمشق.. يتطلع إلى القاهرة.. يحرز نصرًا في الريدانية..

ـ أزمة!.. أزمة!..

أشرت إليـه بيـدي أن يقـترب، لأرى تلـك الأزمة التي يبيعهـا.. اقترب منـي مسرعًا وهـو يعرض بضاعتـه ويرطن بكلـمات تركيـة لم أفهم منها شـيئًا، نظرت إلى طبقه لأسـتبين تلك الأزمة، فإذا هي نوع من الحلوى المعجونة بالفستق!..

ـ هل هذه هي الأزمة؟..

أجاب بصوت طفولي بريء:

ـ إفيت أفندم!..

فهمـت أنه يقصد نعم، برمت كف يـدي قائلًا: كم ثمن القطعة؟

ـ ثمن القطعة ليرتان..

قالهـا بلهجة عربية مشـوهة.. اسـتغربت إجابتـه فبادرته متسائلًا:

ـ هل أنت عربي؟

هز رأسه الصغير علامة الإيجاب

ـ هل أنت من هنا من مرسين؟

هز رأسه باتجاه الأعلى علامة النفي



ـ لماذا لاتتكلم قل لي من أين أنت إذن؟

ـ أنا من بيروت!..

ـ وما الذي جاء بك إلى هنا؟

عيناه العسليتان البريئتان راحتا تدوران في محجريهما وهو يستجمع بعض الكلمات العربية ليرد بها على سؤالي وبعدها نطق بكلمات عربية باعدت بينها فترات صمت وتفكير:

ـ قال أبي لأن بيروت فيها حرب!..

جيش جرار، غبار يسد الأفق، ألمح على رأس الجيش خالد بن الوليد أتى إلى المعركة وسيفه مثلَّم لم يُشْحَذ، القعقاع بن عمرو نسي أن يحضر سيفه، وعمرو بن العاص تخلى عن دهائه. الإسرائيليون يكتسحون لبنان من جنوبها.. لم نعتد هذا في السابق، اعتدنا الاكتساح من الشمال.. قذائف تتناثر إلى شظايا، صواريخ تنطلق، قنابل تنفجر، يعلو غبار إلى عنان السماء كقطعة فطر كبيرة، تتهدم منازل.. يموت أبرياء.. يستشهد أطفال ونساء وشيوخ، تستحم الأرض بدماء الشهداء، يستبسل رجال، تزهو الأرض مفتخرة ببطولات أشبال، الأبطال يحاصرون في قلعة الشقيف، يحاربون في صيدا



وصور، يحاصرون في بيروت، والسيوف بأيديهم.. والحمم والقذائف عمياء تصطدم بكل شيء!.. بيروت تلتهب.. تحترق.. تفتح عينيها لترى صبرا وشاتيلا تتفجر ينابيع دماء.. وأرواح تزدحم أمام مصعد السماء..

طفل وعائلته تركوا بيروت ودمارها ونزحوا إلى مرسين طلبًا للأمان.. صلاح الدين الأيوبي يقطب حاجبيه منْزعجًا يدير قرص الهاتف يتكلم:

ـ أجبروا القوات الإسرائيلية على الانسحاب، أعيدوا الطفل وعائلته إلى بيروت معززين مكرمين..

ـ ألا تريد أن تشتري؟..

ـ بلى.. بلى.. ولكن قل لي هل رأيت الحرب في بيروت؟

قال وفترات الصمت لانتقاء الكلمات ما زالت تسيطر على جمله وبراءة الطفولة تفيض من فمه..

ـ أنا لم أر الحرب رأيت فقط انفجارات وحرائق وبيوتًا تتهدم..

صمت فترة غير قصيرة وترقرقت دموع حرَّى في عينيه ثم تابع:

ـ أمي ماتت عندما تهدم بيتنا..

أحسست وكأن صاعقة انقضت فوق رأسي وخنجرًا انغرس في فؤادي فبادرته متسائلًا:

ـ وأين كنت أنت؟

ـ كنت ألعب في الحارة مع ابن الجيران.. ثم انفجر باكيًا، دموع تسيل بغزارة على وجنتين عانتا شقاءً مبكرًا.. رحت أدقق النظر بتلك القطعة الإنسانية الصغيرة التي تتفجر بالأسى واللوعة والحزن.. عيناه بدتا كفوهة بركان تقذف بحممها، تغضن وجهه فضاعت ملامح الطفولة منه، بدا كرجل كبير.. كبير يعاني مأساة كبيرة..

امرأة تصيح: وا معتصماه.. ترتجف لحية المعتصم، يضرب الأرض بقدميه غاضبًا، يزمجر، يرغي ويزبد، يركب طائرته الحربية يهب لنجدتها وجيشه الجرار يزحف تحته بكامل مدرعاته ومشاته..

ربتُّ على كتفه محاولًا التخفيف عنه وعبثت بشعره المهمل الذي لم يقص منذ فترة غير قصيرة، ثم بادرته قائلًا:

ـ لاتبك يا صغيري، لاتبك!..



اختنقت كلماته في حلقه وضاعت بين دموعه وشهقاته.. ثم حاولت تغيير الموضوع قائلًا:

ـ ماذا يعمل أبوك هنا؟

مسح دموعه بكم قميصه وأخذ نفسًا عميقًا ليغذي رئتيه الصغيرتين ثم نظر إلي وكأنه يراني وسط ضباب كثيف، فكر قليلًا بالكلمات التي سينطقها ثم قال:

ـ إنه يعمل في مصنع الحلوى..

ـ وأنت ألا تذهب إلى المدرسة؟

هز رأسه علامة الإيجاب..

ـ ولكني أراك تبيع الحلوى!

ـ في العطلة فقط.. ولكن ألاتريد أن تشتري؟

ـ بلى.. أعطني قطعتين..

أعطاني قطعتين وابتسم لي ابتسامة صغيرة ومضى داخل الحديقة وفمه الصغير ينادي بصوت طفولي بريء:

ـ أزمة!.. أزمة!.. أزمة!..



٢- الأفعى

صديقي أشرف:

أكتب إليك الآن لأنك دائمًا تحاول أن تكتشفني من الداخل، تريد أن تطبق علي ما تعلمته من علم نفس، لكنك كنت دائمًا تجدني قلعة عالية الأسوار، موصدة الأبواب..

أما وقد تهدمت أسواري الآن وضاع تحت ركامها أبوابي، فسأضع نفسي على كرسيك الطبي وأسترخي استرخاء تامًا، وأترك لك لاشعوري ينبئك عن قصتي التي أعيشها بعذاب ولذة، بحيرة وثقة.. أجل يا صديقي إنني أعيش متناقضات تفتت نياط نفسي، لن أطيل عليك وسأبدأ بسرد قصتي لك من أولها:

تعرف من رسائلي السابقة أنني أعيش في غربتي هذه مع ثلاثة من أصدقائي في شقة واحدة، وأعيد عليك ذكر أسمائهم مرة ثانية، لأن لهم علاقة بقصتي هم: نادر، وكمال، وغسان.

كنا (شلةً) كما يقولون متفاهمين متعاونين، نحن الأربعة يد واحدة في أي عمل نقوم به، فنادر هو الذي قلت لك عنه

إنه موسيقار الشلة، وكمال الذي كان دائمًا عندما يتكلم يحاول أن يتكلم من مصدر ثقة بنفسه، وهو يفتل شاربيه المعقوفين، وأما غسان فهو الذي كتبت لك عنه يومًا بأنه يبني قصورًا في الخيال، وقصورًا من علب تبغ فارغة على الأرض، ولا أدري أين تهيم أفكاره.. عشنا فترة ليست بالقصيرة سعداء إلى أبعد الحدود، كان كل واحد منا يشعر الآخر بأنه يشاركه في كل أموره من سرائها وضرائها.. حتى بات كل منا يعرف الآخر كما يعرف نفسه، ويتعامل بعضنا مع بعضٍ وكأننا أخوة من أم وأب واحد.. هذا ما كان يسرِّي عن نفوسنا ويجعلنا نتحمل مرارة الغربة، إلى أن كان ذلك اليوم الذي حطت فيه امرأة في الرابعة والثلاثين من عمرها رحلها في شقتنا، امرأة عليها مسحة من جمال، ناضجة الأنوثة، تعرف كيف تتعامل مع شبان عزاب لم يخوضوا غمار الزواج بعد.. ولا داعي أن أشرح لك الظروف التي رمت بها إلى شقتنا، وإنما هذا ما حصل..

دبت في البيت حيوية غير عادية وحركة لم أعهدها من قبل، راح كل واحد من رفاق الشلة يهتم بمظهره وبتسريحة

شعره وأناقة لباسه ونعومة ذقنه ويختار كلمات رقيقة أثناء حديثه كاختياره لعطره المحبب لها.. رحت أسخر في داخلي من تصرفاتهم، ولم أعر تلك المرأة أي اهتمام وبعد أيام معدودة بات كل واحد منهم قيسًا.. وباتت هي ليلاه.. تدفقت حيوية الشباب في عروقهم، وتراقصوا على نغمات حب افتقدوها منذ فترة ليست بالقصيرة.. سمعوا زقزقة عصفورة، وشموا أريج وردة، تحقق حلم كان يتوق كل واحد منهم أن يتحقق، فها هي عصفورة جميلة تتنقل أمامه كحجلة، تتكلم برقة ونعومة تنهض قيسا من قبره، فكيف بهم ودماء الشباب تغلي في عروقهم؟!.. راح كل واحد منهم كما يقول المثل العامي يشد اللحاف نحوه، ويريد أن يكون هو الفائز.. وراحت المحاولات تترى من كل واحد منهم وأنا أرقب ذلك دون أي اكتراث..

كانت كعجينة شيطانية سهلة التكيف، تُجاري كل واحد منهم على حدة وتجذبه إلى ساحتها المغناطيسية بأسلوب غريب لتنفرد به وتفهمه بأنها تحبه هو وحده، واختارته دون زملائه كلهم وهو المميز والمفضل عنهم والأثير لديها، وهو من

إختاره قلبها.. إلى آخر ما هنالك من تلك الكلمات المعسولة التي تنسفح من فمها بلا أدنى عناء، وكأنها تردد قصيدة قد حفظتها منذ زمن بعيد.. تلك الكلمات المنمقة المعسولة لم تكن في الواقع مجرد كلمات.. لا بل كانت في الحقيقة ناب تلك الأفعى السام الذي تغرسه في جسد فريستها لترديها صريعة يسري السم في عروقها..

اندفعت الدماء الشرقية في الأجساد، تلتهب بالغيرة والمحافظة على الحبيبة والاستئثار بها.. فكان صراع عنيف حطم (الشلة).. وفرق الأصدقاء.. وحولهم إلى أعداء يكيد كل منهم للآخر.. ينحر كبش الصداقة للوصول إلى ما يصبو إليه دون الآخرَيْن، ويوجه حرابه المشحوذة إلى صدريهما ليكون هو المنتصر..

عندئذ تسللت إلي الأفعى برقة ونعومة فاقت كل نعومة، والتفَّت على جسدي، قيدت حركتي، وراحت تحارب كبريائي التي كانت تحسها فيّ بضعفها الأنثوي، وكلماتها تروي لي قصة مأساتها مع زوجها السابق وكيف كان يهينها ويعذبها، ويأتي إليها كل يوم في أواخر الليل، وهو ثمل يرغي ويزبد، فيضربها

ويذيقها شتى ألوان العذاب والمهانة وكيف كانت تحاول أن تتحمل تلك الحياة في سبيل المحافظة على بيتها وأولادها الخمسة، إلى أن طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، فطلبت الطلاق وكان لها..

إزاء هذا الضعف الأنثوي، وإزاء تلك الروح المعذبة، وإزاء ذلك الجمال، وجدت نفسي مستسلمًا.. فالتفَّت علي من رأسي إلى أخمص قدمي، واستولت على روحي وقلبي وأحببتها في البداية حب شفقة على ما أظن.. أليس هذا صحيحًا يا عالم النفس البشرية؟!.. وراحت الأيام تمر وتزيدني منها قربًا حتى بت لا أطيق عنها بعدًا، فأحببتها بكل كياني، وأصبحت شغلي الشاغل، خيالها لا يفارقني أنى توجهت في ليلي أو نهاري.. حاولت أن أتحرك، أن أبعد، فوجدتها قد استولت على جسدي أيضًا، فبت أسيرًا مكبلًا يلتف علي جسدها ضاغطًا يسلبني التنفس بحرية، يسلبني الحركة إلا ضمن دائرة جسدها الملتف حولي بشكل لولبي، لا أستطيع منه هروبًا أو عنه بعدًا، بل كنت حائرًا أسائل ذاتي: أأحاول

الهروب والبعد؟!.. أم أبقى على ما أنا عليه من اغتراف اللذة، والسباحة في بحر من النعومة ولوكانت قاتلة..

صدقني يا أشرف أن الأمر لم يكن بيدي، حاولت البعد، حاولت الهروب، فوجدت نفسي كالفريسة التي تتبع ضبعها بعد أن استولى على كل مشاعرها.. وارتميت أمامها أصرح لها بكلمات كانت هي كل مناها:

- هل تقبلي بي زوجًا؟

ووعدتها بالزواج.. أجل وعدتها.. رغم أنها تكبرني بعشر سنوات، ولديها خمسة أولاد.. هل تصدق هذا يا أشرف؟.. كيف تحلل هذا أجبني بالله عليك؟..

ليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل هناك ما هو أمر وأدهى، إذ إنني أعرف تمام المعرفة أن البعض من رفاق الشلة قد تمتعوا بذلك الملمس الناعم، لتلك الأفعى ولعقوا من ثغرها سمًا ناقعًا، ما زالوا يستشعرون طعمه حتى الآن وما زالوا يحاولون الاستزادة منه، وهي تحاول أن تصدهم لتظهر أنها قد أخلصت لي ولي وحدي..

عندما أركن إلى نفسي بعيدًا عن ساحتها المغناطيسية، أسأل نفسي ما الذي يشدني إلى إمرأة سيئة السمعة؟ ما الذي يدفعني لأن أجري وراءها وأنا مسلوب الإرادة، كحمل وديع مسوق إلى حتفه بلا أي مقاومة؟ كيف أسلس لها قيادي بلا أي وعي مني أو تفكير.. أحاول البعد، أحاول الهروب، فأجد نفسي أحوم ضمن دائرتها التي أحاطتني بها، أسبح في فلكها وأرسو على شاطئها، أنجذب إليها كانجذاب الفراشة إلى نار متوهجة، وأعرف أني أسعى إلى نهايتي، فلقد أحرقت حتى الآن معظم جسدي، ولم تبقِ مني سوى شبح متحرك لاهث في الجري نحوها، وبقراري الزواج منها بدأت بإحراق الأسطر الأولى من كرامتي ونخوتي وشهامتي..

سيحترق جناح الفراشة يا صديقي، ستسقط إلى الأرض، تعفر وجهها بالتراب، تئز، تئن، تدور حول نفسها.. أعرف أنها لن تستطيع أن ترتفع في الهواء ثانية، فلقد فقدت ما لديها من أجنحة.. ولن يفيدها يومًا أن تنعي أجنحتها المحترقة.. النار تجذبها، وتشدها، وتعمي بصرها وبصيرتها، وهي تدرك أنها تسعى لحتفها، أما أنا.. فأنا مدرك ما سأؤول إليه، ومع ذلك

فأنا مندفع بكليتي.. وأنا لا أمني نفسي بأن أجد تلك النار بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، بل أعرف أنها ستكون سعيرًا لا يطاق..

هذا (أنا) اليوم أما (أنا) الأمس الذي تعرفه فإنه لا يزورني إلا نادرًا، وعلى الأغلب أنه سيمتنع عن زيارتي، فلا أدري أيروق لك أن تحلل أنا اليوم أم أنا الأمس؟.. وهل سترثي لحالي أم تقف ضدي كما وقف أغلب المعارف والأصدقاء عندما علموا بعزمي على الزواج؟

هذا أنا اليوم يا صديقي بلا أسوار، فادرس ما شئت، وأنا موقن بأنك لن تستطيع أن تكتشف كل مجاهل النفس الإنسانية مهما أوتيت من عبقرية.. وها أنذا نموذج بسيط لنفس إنسانية تحوي من التناقضات ما يصعب على الجبال حمله.. فما رأيك؟

بعد أيام سيتم زواجي فلا داعي لأن تزعج نفسك وترسل برقية تهنئة أوتعزية، فأنا نفسي لا أعرف ما الذي يناسب هذا الموقف.. ولك الخيار في أن تحتفظ بصداقتي أو

أن تشطب اسمي من بين أسماء أصدقائك، مع أنني آمل أن تستمر صداقتنا..

لك تحياتي

صديقك



٣- الأمل الكبير
(أو صندوق خشبي)

صَعِدا الباص وجلسا في مقعدهما بسرعة، أزاح أحدهما زجاج النافذة بخشونة بالغة وكأنه يريد لكل الهواء الموجود في الخارج أن يدخل عبر هذه النافذة ليلطف حرارته و حرارة أفكاره. راح يتكلم باندفاع بالغ ليتم ما كان قد بدأه من حديث مع زميله قبل صعود الباص:

ـ أنا كما أقول لك الفكرة جيدة جدًا والربح من ورائها مضمون مئة بالمئة..

ـ هل أعجبتك المنطقة ودرستها دراسة كافية؟

ـ بالطبع فهو موقع استراتيجي، لا يدانيه موقع في كل هذه المنطقة.. وليس هناك موقع آخر أستطيع أن استخدمه لهذا الغرض..

ـ أرى أنك مصمم على تنفيذ هذه الفكرة!..

ـ منذ شهرين وهذه الفكرة تحفر في رأسي وتؤرق جفني..



ـ و ماذا تريد أن نفعل..؟

ـ العملية بسيطة جدًا سآتي بصندوق خشبي كبير وأضعه على حافة الطريق عند موقف الباص.. وعندي في البيت طاولة خشبية صغيرة أستطيع الاستغناء عنها سأضعها داخل الصندوق وأضع عليها ركوات القهوة والفناجين.

ومن أين ستجلب الماء..

فكرتُ في هذا الموضوع.. سأجلب معي (بيدونين) من الماء كل يوم.. سعة كل واحد منهما عشرون لترًا..

ـ و هل يكفيان لهذا المشروع..؟

ـ على الأغلب لن يكفيا.. فسيكون عندي زبائن كثيرون وسأحتاج إلى أضعاف هذه الكمية من الماء.. ولكن أنت تعرف أن كل السائقين سوف يتوقفون عندي لشرب القهوة.. وسأتعرف عليهم ولا بد أن البعض سوف يخدمني ويجلب لي معه عددًا من (بيدونات) الماء..

الباص يتوقف ويمشي العديد من المرات و هما لا يشعران بأي شيء مما يدور حولهما.. البعض ينْزل وآخرون يصعدون



وهما لا يريان أحدًا. محرك الباص الذي أنهكه المسير كانت له جلبة عالية كانا لا يسمعانه مطلقًا، بل كانا يرفعان صوتيهما ويتابعان الحديث في دراسة مستفيضة لهذا المشروع..

ـ أنت تعرف أنني أفضل من يجيد غلي القهوة.

ـ و الله يا عمي قهوتك لا يُعْلَى عليها. و غدًا عندما يتذوقها السائقون فستجدهم يقفون بالطوابير.. ولكن أخاف ألا تستطيع أن تقوم بهذا العمل وحدك إذا كان العمل كبيرًا إلى هذا الحد!..

ـ على الأغلب سيكون حجم العمل كذلك.. وفي هذه الحال سأستنجد بك يا صاحبي على الأقل لتساعدني في غسل الفناجين وتقديم القهوة...

ـ والله أنا مستعد.. إذا لم أقف معك في مشروعك هذا فمتى سأقف؟!..

ـ أعرف أنك لن تقصر أبدًا.. فالصديق عند الضيق.. وبما أنك صديقي فسوف اكشف لك سرًا.. أنت تعلم أن لكل مصلحة سرًا.. وللقهوة ثلاثة أسرار.. عندما تعرفها تكون قهوتك ألذ قهوة في هذا العالم!..

ـ ثلاثة أسرار؟!..

وجهـه طافح مسـتبشر وابتسـامةٌ عريضة قد ارتسـمت عليـه.. وعيناه تلمعان ببريق واضح، فهو مدرك كل الإدراك بأن صاحبه لا يعرف هذه الأسرار.. وسـوف يكشف له عنها ويفيض عليه من خبرته وعلمه في هذا المجال..

ـ أجـل يا صاحبـي ثلاثة أسرار لم أبح لأحـد بها من قبل ولكننـي سأرشـدك إليها، فأنـت صديقي وقـد أحتاج بعض الأحيـان أن أتأخـر لأجلب المزيد من البـن فتقوم أنت مكاني بإعداد القهوة.. فعلينا ألا ندع الزبائن ينتظرون كثيرًا!.. أنت تعـرف أن السـائقين يقفون بضـع دقائق يتناولـون القهوة ثم يركبون سياراتهم وينطلقون مسرعين..

ـ معك حق يجب ألا نؤخرهم..

ـ افتـح أذنيك واسـمعني جيدًا: الـسر الأول هو اختيار نـوع البـن.. والـسر الثـاني كيفية تحميصـه وطحنـه.. والسر الثالث خلط الهيل وغليه.. وسأشرح لك هذه الأسرار عمليًا كي تتعلمها..



ـ عندما تقوم بصنعها أمامي سوف أتعلمها من أول مرة!..

ـ هل تعرف يا صاحبي أننا سنجني المال الوفير من هذا المشروع.. ستتغير حياتي وحياتك بالكامل سنصبح من أصحاب رؤوس الأموال.. سأشتري بيتًا جديدًا تدخله الشمس من الصباح إلى المساء، واسعًا كي يلعب به أطفالي بدلًا من اللعب في الحارات..

ـ إذا أصبح لدينا مال كثير نستطيع أن نطور مشروعنا..

ـ أجل لقد فكرت في هذا سأضع صندوقًا خشبيًا ثانيًا وثالثًا.. نستطيع أن نقدم بأحدهما الشاي فقد يكون بعض السائقين لا يرغبون بشرب القهوة.. ونستطيع أن نقدم بالآخر بعض السندويشات الخفيفة على الماشي..

ـ يجب أن تكون سندويشات مختلفة الأنواع لتلبي أغلب رغبات السائقين!..

ـ أجل!.. أجل!.. لقد وصلنا.. هذا هو المكان هنا سنضع الصندوق الخشبي..



صاح عاليًا:

ـ أنزلنا هنا من فضلك!..

قال السائق:

ـ لا أستطيع أن أقف أو أتوقف هنا.. ألا ترى الشاخصة التي ثُبِّتَتْ على طرف الطريق؟.. إنها تعني (ممنوع الوقوف والتوقف نهائيًا هنا)!..

في هذه الأثناء جلس في مقعدهما شاب أغلق زجاج النافذة بهدوء لئلا تتطاير خصلات شعره من الهواء.. وراح ينظر في الأفق البعيد!..



٤- الجَــدَّة

يلعلـع صوت التلفاز خارقًا صمت البيت بشـكل دائم، فهو المتكلم الوحيد في البيت، هو المربي.. والمحدث.. والموجه الذي يغـرس الأفكار، وسـواه مصيخ السـمع، معلق البصر بتلك الشاشة السحرية الملونة، ولن يكون العكس يومًا..

بـاح سـعيد لزوجته عـن حنقـه وغضبه من هـذا الجهاز الـذي يتكلم دائمًا ويمنعهم حتى من أن يكلِّم بعضهم بعضًا، فهم يعيشـون كالغرباء، وهم تحت سـقف واحد، لا يشـارك أحدهم الآخر أفكاره وهمومه وأحلامه، فكل منهم شاخص البصر، مسـترخٍ في مقعده يتابع ما يعرض، سـواء أكان غثًا أم سمينًا، ونسي حتى أن ينظر في وجوه الموجودين حوله ليبثهم مشاعره ويتحسس مشاعرهم قال لها والجِدُّ بادٍ على وجهه:

- القطط تتمسح بمن حولها، تستجدي عطفهم، وأحيانًا لتشعرهم بمحبتها لهم، ناظرة إليهم بعينين مترعتين بالمحبة..

الزوجة:

- أجـل كلامـك صحيح، ولكنـه من ناحيـة أخرى فقد قرّب المسـافات في هذا العالم المترامـي الأطراف، وبات العالم قريـة صغـيرة، وأصبحـت وسـائل المعرفـة متاحـة للجميع، والخبر يأتيك ساخنًا..

سعيد:

- انظري ماذا استفدنا من كـون هذا العالم قرية صغيرة: سنشـاهد الآن نحـن والأولاد ما تنقله لنا عدسـات الكاميرا مـن قتل وخـراب ودمـار، سنشـاهد الدماء المسـفوكة تجري وهي ما تزال حارة على إسـفلت فلسـطين، وبغـداد، وتراب أفغانسـتان.. سنشـاهد عزرائيـل عـلى الهـواء مبـاشرة، وهو يسـتل الأرواح من الأجسـاد المتناثرة هنا وهناك.. واسـمعي مثـلًا الأخبار السـاخنة التـي يتحفنا بهـا: قطـارٌ انحرف عن مساره.. وطائرةٌ فُقِدت بعد إقلاعها بربع ساعة.. وسيلٌ عرم اجتـاح بلاد واق الـواق.. وريـاحٌ عاتية، وعواصـف مجنونة دمـرت آلاف البيـوت، وشردت الملايـين، وخلفـت وراءها مئـات القتلى.. والبحر نظر بعينين حمراوين لليابسـة، فحاول

كسر الطوق الذي تفرضه حوله، فاجتاحها (تسونامي).. وخلف وراءه آلاف القتلى والبيوت المدمرة، وزرع ملحه في ترابها وانصرف.. وفي شمال الصين الغربي تزحلق أحد الرعاة وكسرت ساقه اليسرى.. وفي مجاهل أفريقيا خرج نمر مرقّط في السابعة صباحًا إلا خمس دقائق، ولم يعد إلى عرينه حتى ساعة إعداد هذه النشرة.. وعدسات المصورين تلاحق فنانة.. نسيت أن ترتدي كامل ثيابها..لتحظى منها بلقطة نادرة تثير إعجاب المراهقين، وبحديث تُنَظِّر فيه وكأنها ابن خلدون أو أفلاطون.. ومحللون سياسيون يذكّرونك بأيام الكهانة القديمة، وبالغجريات اللاتي يمشين في الطرقات، وهن يصحن: بصارة!.. براجة!.. والغريب أنهم يلبسون لباسًا أنيقًا ومزينًا بربطات عنق جميلة، ويعرفون المستقبل من غير أن يحتاجوا إلى ضرب الودع أو الرمل!.. وموسيقى هزيلة.. ومطربون محسوبين على الطرب خطأً يصيحون ولا يستريحون..

الزوجة:

- أنت لا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب، ألا ترى أن هناك برامج ثقافية جيدة ومفيدة، وهناك كوميديا

راقية ترسم البسمة وتزرع البهجة في القلب، ألا ترى أن بعض المعلومات التي يحملها إليك التلفاز، قد لا يحملها إليك كتاب ولو نظرت بين سطوره؟!..

سعيد:

- كلامك صحيح والأمور نسبية إلى حد ما ولكن..

قطع حوارهما جلبة الأولاد وهم يتصايحون:

- أريد أن أتابع الفيلم الأجنبي..

- لا!.. نريد مشاهدة تمثيلية السهرة..

- لا!.. هناك ندوة ثقافية ستبثها المحطة الفضائية الآن ومن غير المعقول ألا نشاهدها..

- بدي شوف أفلام كرتون!..

وعلا صراخ الولد ونحيبه..

اختلط الحابل بالنابل، وكلٌّ يغني على ليلاه، علا الصياح وازدادت الجلبة، فلكل منهم ميوله وآراؤه..

في ركن قصي من الغرفة كانت تجلس امرأة في منتصف العقد السابع من العمر، صامتة، ترقب ما يدور بغيظ مكتوم، راحت تحدِّث نفسها بعد أن نسي أن يحدثها الآخرون:



- الله ما أجمل أيام زمان، كانت الحياة ماشية على أحسن ما يرام، كانت الحياة هادئة، والكل يحب الكل، وكلهم قلوب بعضهم على بعضٍ، كنا نستظل تحت أشجار الحنان والحب والمودة، وأجمل الروابط كانت تربطنا، كان الجميع يسرون بأن يرى بعضهم بعضًا، و يعرف بعضهم لون عيون بعضٍ:

- أنت لون عيونك عسلي، وأنت لونها أسود، وأنت لونها أشهل.. آهٍ ما أجمل سهرات أيام زمان، العائلة كلها مجتمعة، والجميع يتبادلون أحاديث السهرة الممتعة، والجدة تتصدر المجلس، والصغار، يطالبوها العديد من المرات، لتحكي لهم الحكايات، فتستجيب لمطالبهم وتحكي لهم من حكايات علي الزيبق، والشاطر حسن، وألف ليلة وليلة، وعن بنت الملك الجميلة التي أحبت أحد أفراد الرعية، وعن الجني الذي كان يتمثل بصورة إنسي وله أرجل ماعز.. عيون الجميع مشدودة إلى وجه الجدة، وتعابير الدهشة والمتعة مرسومة على الوجوه.. إيهْ!.. إيْ والله تلك السهرات كانت تحيي القلب!.. اليوم المرأة عندما تتذكر، وتنظر إلى رأس زوجها تقول له: يا ويلي يوجد شيب براسك!.. متى شبت؟!.. آه كانت الحياة تسير ببطء،

لكن كنا سعداء، كان يوجد فقر لا أخفي ذلك.. لكن عندما كنا نضحك كنا نضحك من كل قلبنا.. كانت الضحكة صافية مثل ماء بئرنا.. كانت الأشياء الصغيرة تفرحنا، والموقف البسيط يضحكنا، أما اليوم فكل الكركوزاتيه الموجودين في التلفزيون لا يستطيعون سحب بسمة من وجه الواحد.. الناس صارت جامدة!.. غريب!.. الرفاهية موجودة، لكن الهم أكبر.. الكل راكض ركض الوحوش ومستعجل يريد اللحاق بركب الحضارة.. هل هذه هي الحضارة يا ترى؟!.. والله أشبه الراكضين وراء هذه الحضارة بالعطشان الذي يشرب من ماء البحر ولا يرتوي!..

صوت الأولاد وصخبهم مازال يملأ جو الغرفة، والنقاش بين سعيد وزوجته مازال قائماً، والجدة لم تبرح مكانها بعد وخواطر الأيام الخوالي ما زالت تداعب خيالها..

كان بصرنا يستمتع بالحقول الخضراء الواسعة ويرتاح ويتنقل من زهرة إلى زهرة مثل الفراشة، ومثل النحلة.. أما الشجرة فكانت هي عمرنا، وروحنا، ومن ترابها نمت أجسادنا، كنا نعطيها وتعطينا، كنا نقعد بظلها الظليل، نمسح

عـرق الكد والتعب، ونتقاسـم اللقمة مع بعضنـا، على أنغام زقزقـة العصافـير، وهبـات النسـيم الـذي لم تلوثـه مخلفـات حضـارة اليوم،كانـت البسـمات تعلـو الوجوه، تشـعرك بأن الجميع بسـطاء وسـعداء، والأحاديث بينهم بسـيطة ومسلية وأغلبها تحكي عن زواج فلان بفلانة، وعن الرجولة والقوة، وعـن الصبر والجلد في العمل.. إيـه!.. صورة أبي مازالت في مخيلتي حاملًا منجله وهو يسابق ابن عمه وإخوانه في الحصاد، والعرق يتصبب من الأجسام بكاملها وليس من الجباه فقط، أمـا عروق السـواعد وشرايينهـا فهي منتفخة وكأنهـا أنابيب نفط.. إيه.. كانت أيام!.. أما اليوم..

ازداد صخـب الأولاد وخلافهم فقطع على الجدة أحلام يقظتهـا فصحـت عـلى صـوت الزوجـة وهـي تصيـح بأعلى صوتها:

- كفـى صياحًا!.. يكاد رأسـنا أن ينفجـر، أعطوا جهاز التحكم لأبيكم كي يختار القناة المناسبة..

سعيد:

- دعيهم يعبروا عن آرائهم!.. دعي الديمقراطية تكون هي السائدة في هذا البيت!..

الجدة:

- الديمقراطية!.. إذن اشترِ لكل واحد منهم تلفزيونًا!.. حتى يمارسوا ديمقراطيتهم.. فنهرب من ضجيجهم إلى ضجيج التلفزيونات!..



٥- الرحلة

الخطوات ثقيلة، الأقدام تخطو على الأرض بصعوبة بالغة، الدهر أتعب المفاصل، وأوهن العظم وأرهق الجسم كله.. آهِ ما أصعب نقل هذه الأقدام، هل هي ثقيلة إلى هذا الحد؟.. أم أن ثقل الجسم والسنين حملاها فوق ما تطيق؟!..

ـ إلى أين يا جدتي؟

ـ إنني ذاهبة إلى بيت عمتك يا زاهر..

ـ إنه قريب جدًا هل تحتاجين شيئًا؟

ـ أجل يا بني تعال أتوكأ عليك ريثما أصل!..

ضحك زاهر وقال:

ـ قلت لك يا جدتي إن بيت عمتي قريب جدًا..

ـ تعال يا بني هات كتفك أتوكأ عليها!.. يا الله ما أصعب الحركة!.. لم أكن كذلك يومًا، عندما كنت طفلة في مثل سنك!.. آهِ ما أجمل تلك الأيام!.. ركضت في هذا الطريق كثيرًا ولعبت كثيرًا.. تسلقت تلك السنديانة العالية، كنت لا أخاف صعود الأشجار كنت خفيفة جدًا ورشيقة.. أقفز..



وألعب.. وأركض من غير شعور بأي تعب أو إعياء.. حقول هذه القرية يا زاهر أعرفها حقلًا حقلًا، جمعت الأزهار، ركضت وراء الفراشات المزركشة الملونة بألوان أحلامي.. واليوم بهتت أحلامي.. كنت أحلم أن أطير مثلها وأتنقل بين البساتين والحقول الفسيحة، لأرقب حقول القمح الخضراء الموشاة بشقائق النعمان.. جميل جدًا أن ترقب الحقول من عل..

ـ وهل حقًا كنت صغيرة مثلي يا جدتي؟!..

ـ افتر ثغر الجدة عن ابتسامة أنهكتها السنون وهي تقول في نفسها يا لبراءة الطفولة!..

ـ أجل ياصغيري وهل تحسبني ولدت كبيرة هكذا؟.. لقد كنت صغيرة مثلك وجميلة مثلك وبعدها بدأت اكبر يومًا بعد يوم.. وأصبحت فتاة يا بُني.. فكبرت آمالي وأحلامي وتغيرت اهتماماتي، أحببت جدك وأحبني فأصبحت عروسًا جميلة مليئة بالحياة والأمل، كان عرسنا جميلًا جدًا لقد اجتمع كل الأهل والأحباب وهم يرتدون أجمل ثيابهم، يرقصون.. ويغنون.. كنت يومها نجمة ذلك الحفل الرائع وكنت صاحبة

قوام رشيق ممشوق، وخدين أحمرين،كلون الورد الجوري وليسا كما ترى اليوم.. يومها كان جدك يقول لي أنت أجمل إنسانة في هذه القرية، بل أنت أجمل إنسانة في هذه الدنيا، أحبني.. وأحببته وأنجبنا.. آهٍ إن قدمَيّ تؤلماني وكذلك جميع مفاصلي.. أين ذهبت تلك الرشاقة، وأين ذهبت تلك القوة التي كنت أتمتع بها، إنني اليوم عندما أدوس على قدمي فكأني أدوس على قطعة من الزجاج.. هل يا ترى من الوزن الزائد أم أن عظامي أصبحت ضعيفة كضعفي هذا؟!..

ضحك زاهر وقال:

ـ ومتى كنت قوية يا جدتي وأنا لاأعرفك إلا هكذا؟!..

ـ معك حق، فأنت لاتعرفني عندما كنت صبية، أنجبت من الأولاد ستة هم أبوك وأعمامك وعمتك، قمت بتربيتهم جميعًا أحسن تربية، فكنت أقدم لهم الطعام وأغسل ثيابهم وأهتم بكل أمورهم، إضافة إلى صنع العجين والخبز، وكل هذه الأعمال أقوم بها بعد أن آتي من عملي في الحقل.. آهٍ يا بني كم عملت وتعبت في هذه الحياة ذقت حلوها ومرها، والأيام تجري كمياه النهر المسرعة ولن تعود أبدًا، الحياة

يا بني كالحلم، اليوم أنت صغير يافع.. وغدًا رجل.. وبعده كهل فعجوز مثلي تحسب للخطوة حسابها.. سلسلة مرتبط بعضُها ببعضٍ، ولها نهاية!.. وأرى هذه النهاية قريبة.. أنا اليوم أعيش منتظرة النهاية، فالطموح والأحلام والأهداف والغايات أصبحت كلمات جوفاء، لاتعني لي شيئًا فضعفي وقلة حيلتي هما ما يشغلاني عما سواهما، فكل شيء قد ضعف في جسدي، ليس حركتي فقط فنظري وسمعي وشمي وذوقي كل تلك الحواس قد ضعفت وكأن صلاحيتها للعمل كادت أن تنتهي، حتى الأشياء الجميلة.. يا بني!.. لم تعد تغريني ولاتسرني، فعندما كنت صبية كل شيء له طعم آخر، ألذ وأشهى.. أما اليوم فكل شيء أحس به معاد مكرر لا طعم له ولا لون.. إيه!.. رحلةٌ طويلة قطعت أشواطها.. فأتعبت هذا الجسد وأنهكته، آه!.. يبدو أنني وصلت إلى خط النهاية.. اطرق الباب يا زاهر!..

عرق يتصبب من جسدها بالكامل، ضيق في التنفس.. تلاشت قوتها بالكامل، هوت إلى الأرض، تحطم كل شيء!..

نظر زاهر إليها مشدوهًا، وهو لايعلم ماذا حصل، صائحًا بأعلى صوته:

ـ جدتي!.. جدتي!..

رحبت الأرض بجزء منها، كان فوقها، وعاد إليها.



٦- الضُـرَّة

ألقـت برأسـها المثقـل بالهمـوم بـين راحتيهـا، وراحت الأفكار ترسم الخط البياني لزواجها الثاني:

عندمـا تقدم لخطبتي مـا طمعت يومها في ماله ولا عقاره رغـم وضعـي المادي المتواضـع، أردت يومها فقـط أن يكون لي حيـاة زوجية مسـتقرة كباقـي البشر، فوضعـي كمطلقة لا يتناسـب والفطـرة البشرية، كما أن مجتمعنا لا يرحم، ويرسـم العديـد مـن إشـارات الاسـتفهام حـول المطلقـة، و الطلاق وأسبابه.

عندما شاهدته أول مرة جلس كما يجلس التلميذ المؤدب بين يدي أسـتاذه، مطرق الرأس، محمر الوجه، يسـترق النظر بأطراف عينيه، يشـكو تقصـير زوجته تجاهه وتجـاه أولادهما الخمسـة وأنه مظلوم في عيشـه معها، وأن حياته معها جحيم لا يطـاق، وأنـه مسـتعد لطلاقها إن أنـا وافقت عـلى الزواج منه، وأنه يسـعى لحياة زوجية سعيدة قد حرم منها، وعلى حد قوله هذا هو السـبب الرئيسي الذي يدفعـه للزواج الثاني، ثم

راح يشرح كيف أنه بنى نفسه بنفسه وكيف انتصر على الفقر وانطلق من تحت الصفر ليكوِّن ثروة هائلة بجهده وذكائه الشخصي.. بعدها راح يمنيني بوعود صورت لي المستقبل معه بأنه الجنة بعينها..

بلعتُ الطُعم يومها، ولم أرض بأن يطلق زوجته الأولى، لئلا أبني سعادتي على أنقاض سعادتها.. عشنا الأشهر الأولى من زواجنا وهو يلبس قناع العاشق الولهان المتيم ويطالبني أن أنجب له ولدًا كي يكون الرابط الذي بيننا متينًا وقويًا.. لكن شرخًا في علاقتنا راح يتسع شيئًا فشيئًا ليشكل هوة سحيقة جرّاء غيرته المفرطة: لا تلتفتي!.. لا تضحكي!.. لا تبتسمي!.. مع من كنت تتكلمين؟.. إلى من كنت تنظرين؟..

كان يتغزل بعيني ويريدني بلا عيون، ويتغزل بجمالي ويحوك بخياله المريض الشكوك والظنون.. حتى إنه وضع مسجلًا على هاتف المنزل في مكان خفي ليستمع إلى جميع مكالماتي الهاتفية أثناء غيابه، يوم اكتشفته وأبديت انزعاجي لهذا التصرف نزع القناع وأظهر وجهه الحقيقي وأفهمني بأنه

لا يثق بامرأة، وأن المرأة عقلها صغير ولا تتورع عن الخيانة وتنصاع لأي مغر من المغريات، لذلك يجب أن تكون دائمًا تحت المراقبة بل تحت المداس وأن تحصَى عليها الأنفاس فهي ناعمة لكنها كالحية سمُّها قاتل.. يوم ناقشته لأفهمه أن الحياة الزوجية لا تقوم إلا على الحب والثقة المتبادلين يومها فتحت أبواب جهنم..

أحست بالخدر يسري في مرفقيها، لكن سيل الأفكار كان يجمدها ويمنعها من الحركة وكأنها امرأة من الجبس.. فحيح صوته ما زال يجرّح خلايا نفسها ويغتال المحبة التي أكنتها له في بدء الزواج وكلماته ما زالت تحفر في نفسها أخاديد من الصعب أن تندمل:

ـ أنتِ أفهم مني؟!.. ومتى كانت النساء أفهم من الرجال؟!.. أنا بإمكاني أن أشتري العديد من أمثالك، بل أجمل منك... بالمال أستطيع شراء ما أشاء من النساء وببريق الذهب أخطف الأبصار وأحني الرقاب..

ـ خنقتَ المحبة بغيرتك العمياء.. واغتلت حياتنا الزوجية ببريق ذهبك الذي يتساوى عندي ونحاس صدئ، ليكن بعلمك أنني وددت بزواجي منك أن أجد إنسانًا..

لكنني وجدت صُرَّة من الغيرة مملوءة بالمال، وهذا المال لن يشتري شعرة مني.. فأنا لست للبيع..

رفعت رأسها من بين يديها، وأطلقت تنهيدة تشبه نفثات البراكين وفي مخيلتها كان يدور كيف تركت له البيت وهي تحمل وليدها بعد أن أجبرها على التخلي عن كامل مستحقاتها في سبيل الحصول على حريتها..



٧- العصافير

يـوم وقفت على باب الجنة وطرقتـه بكفين مخضبين بلون أحمر قانٍ، سألني رضوان خازن الجنة:

ـ من أنت؟..

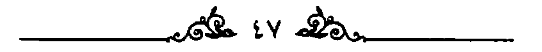
لم يتلعثم لساني أبدًا، أجبته على الفور:

ـ أنـا شـهيد مـن جنـوب لبنان، جئـت ومعـي قافلة من الشهداء!..

ـ ما اسمك؟..

احـترت.. حاولـت أن أتذكـر.. آه.. لم أذكـر لي اسـمًا أو شـكلًا، نظـرت إلى نفسـي.. وجدت شـيخًا كهـلًا وطفلًا رضيعًا، وشـابًا يافعًا وامرأة في التسـعين وفتـاة لم تتفتح أكمام زهرتهـا بعد.. تلمسـت قلبـي فإذا هو أرض صلبـة قد أنبتت زهـرة رويـت بدم طفـل، لم يكتمل نطق الحروف على شـفتيه الرقيقتين بعد.. أردت أن أرد عليه فلم أعرف من أنا!..

جفَّـت الكلـمات في حلقـي.. مزيـج مـن الأفـكار تلاطـم في رأسي.. مـوج من الذكريات الأرضية اندفع إلى مخيلتي:



- تذكـرت.. آه تذكـرت.. أنا.. أنا.. أنا الشـيخ خالد لا أنا الشـاب عامـر لا أنا الطفلة فاطمـة لا أنا الفتـاة ثناء.. أوه أنـا العجوز.. آه أنا.. من أنا.. الطفـل.. أنا كنت واحدًا منهم سـاعة انصبَّت علينا الحمَم الإسرائيلية فعجن لحمي بلحمه، واختلطت أشلائي بأشلائهم.. جرى دمي ودمهم في نهر أحمر ليروي أشجارالزيتون المكسرة الأغصان.. أجل كنت واحدًا منهم: فهل تعرف من أنا؟

رضوان مستغربًا:

- أنـت كل هؤلاء!.. لم يأتني شـهيد بهـذه الصفات من قبل.. أعرف الشهداء الذين سبقوك بالدخول إلى الجنة، كانوا يستشهدون بضربة سيف، أو بطعنة رمح. برمية سهم، أو على أعـواد المشـانق، برصاصة، أو بشـظية.. أما أن يأتيني شـهيد مكوَّن من عجينة إنسـانية بهذا الشـكل، فهذا شيء مذهل!.. بالله عليك حدثني كيف حصل لك هذا؟!..

تزاحمـت الأفـكار في رأسي.. بـروق، رعـود، قنابـل، صواريخ، شظايا، الأرض تهتز تحت قدمي:

- آه تذكرت!.. أجل لقد تذكرت.. لقد كنت قبل أن أصبح مع تلك العجينة الإنسانية، كنت طفلًا صغيرًا أسكن مع أهلي في بلدة تدعى (قانا)، كنت ألعب في بساتينها وروابيها، كنت عصفورًا أتنقل من غصن إلى غصن، قال لي أبي يومها:

- لايكفي أن تكون عصفورًا جميلًا مسالمًا، يجب أن تكون صقرًا لتحمي عشك، فالمناقير الناعمة والبراءة ليس لها عيش في قبائل الطيور الجارحة.. الوردة يا بني رغم كل جمالها ورقة ملمسها فإنها تحمي نفسها بشوك تردّ به عدوان المعتدي.. نعم لقد كان أبي صقرًا، يقارع العدوان الإسرائيلي، ويقض مضاجعه بصواريخ الكاتيوشا وما أقل الصقور في هذا العالم!.. كان يدافع عن أرضه، عني، عن أخوتي، عن كل العرب، كان يقول: الكرامة والشرف هو أن نبذل أرواحنا رخيصة في سبيل وطننا والدفاع عنه.. وفي نيسان ١٩٩٦- يا سيدي يا رضوان انصبّ علينا الحقد الإسرائيلي، نعق بوم الخراب وأتت الغربان السوداء.. تهدمت بيوت (قانا)، حل الدمار مكان العمار، نشبت الحرائق، علا في الجو غبار أسود..

بكت أشجار الليمون، تساقط ورق الزيتون، تفجر تراب (قانا) غيظًا وهو ينادي.. وما من مغيث.. لقد كان التراب يومها حزينًا.. أتدري يا سيدي لم كان حزينًا؟.. مع أنه يجب أن يكون فرحًا بعودة أبنائه إليه!.. لقد كان حزينًا، لأن هؤلاء الأبناء كانوا عصافيرَ، ولم يكونوا صقورًا، لقد كانوا وردًا ذا ملمس مخملي ناعم وعبق عطري جذاب، ولكن بلا شوك!.. أزكمت أنفي رائحة البارود والشواء الإنساني، وغبار المنازل المتهدمة.. صرخات نساء تفت نياط القلب.. دمعة حرّى على وجنة شيخ تبلل شعر دقنه الأبيض.. رقية تحثو التراب على رأسها.. صوت محمود المتفجر يزأر: يا الله قتلوا أولادي الأربعة!.. عيونه تحملق ببقايا جثثهم، يحضنهم، يقبلهم، يصطبغ وجهه وثيابه بلون أحمر.. والزوجة تقف شاخصة العينين، كتمثال حجري نحِت منذ آلاف السنين.. والعجوز زينب ترفع يدها فوق رأسها لتتقي الحمم الهاطلة.. قذيفة تسقط فوقها وفوق يدها.. تختفي العجوز.. آهٍ أيتها العجوز كم أحبك وأحب حكاياتك، عن الشاطر حسن، وأبي زيد الهلالي، وسناء محيدلي، وصواريخ الكاتيوشا.. الوجوه صفراء ممتقعة، وعندما ينبجس الدم ينبجس أحمر حارًا قانيًا.. نحن

في عروقنا يا سيدي رضوان سائل أحمر يجري يدعى الدم، لا نستطيع العيش بغيره، ولكن لا تستغرب إذا قلت لك إن بعض الأجساد قد استبدلت دمها بسائل ليس فيه من الدم إلا لونه، فأصبحت باردة الأجساد كضفدع هرِمٍ في كُمُون شتوي.. في ذلك اليوم يا سيدي عندما تهدمت منازلنا وتفجرت الأرض تحت أرجلنا طارت أسراب من بين العصافير حاملةً فراخها وأنا كنت من بين تلك الفراخ لتحط بجانب قوة الطوارئ الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة وتحتمي برايتها.. لتأمن من شر الغربان السوداء، فأعطونا بعض الخيام لتكون منْزلًا لنا.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوها سكنًا لنا ولا أمنًا.. هيئة الأمم هذه يا سيدي أعضاؤها هم أغلب دول الأرض وقد وجدت هذه الهيئة لتحقق العدل العالمي ولتنصف المظلوم من الظالم وقد أسلمت هذه الدول قيادها لخمس دول لها حق يدعونه حق الفيتو الاعتراض وهذا الحق يخوِّل أي دولة من هذه الدول الخمس بإلغاء أي قرار تتخذه هذه الهيئة معارضًا لمصالحها.. آهٍ ماذا أقول يا سيدي يا رضوان لقد أُسْلِمت الشياه للذئب ليكون أمينًا عليها.. فكان خير أمين!.. كلما جاع افترس شاة، يومًا في شمال الأرض، ويومًا في جنوبها

ويومًا في وسطها.. الشياه تستغيث تستنجد تطالب بحقها في الحياة، ترفع عريضة احتجاج موقَّعة في أسفلها ببصمات مخضبة بالدم، مربوطة بها أشلاء متناثرة لشيخ وامرأة وطفل، وموثقة بأشرطة الفديو.. تستلم الذئاب الاحتجاج.. تراوغ.. تربت على الأكتاف.. تطلب ضبط النفس.. تنهش من الخلف نهشَ مسعور.. تأكل وجبتها وتسترخي للاستمتاع، ريثما تحضِّر لنفسها وجبة أخرى.. تسترخي على مقعد وثير، تدخن الغليون -البايب- يتصاعد دخانه أمام الأنوف، يغطي على دخان جميع الحرائق في هذا العالم، تتخدر الشياه برائحته تحلم بمرج أخضر.. هذه هي الهيئة المطالبة بالعدل في هذا العالم ولدينا هيئة أخرى أصغر منها حجمًا لا أريد أن أكلمك عنها البتة، فهي لا تستطيع أن تحمي نملة، وليس لها إلا قراران: نستنكر!.. ندين!.. فقط لا غير.. لا أحب أن أطيل عليك يا سيدي لئلا تدعوني ثرثارًا.. يوم نزلنا في الخيام بجانب قوة الطوارئ الدولية، وتظللنا برايتها، نطلب الأمن والسلامة، جاءت الغربان.. تحمل في صدرها الحقد الأسود الذي قد عشش فيه منذ آلاف السنين.. نعق بوم.. انصب الحقد.. ارتعشت الأرض، نفثت غبارها عاليًا كقطع فِطْر كبيرة.

نحمل في جوفها رؤوسًا.. وأقدامًا.. وأيادي.. وصدورًا.. وأشلاء.. لقد كنت أنا بينهم يا سيدي، عُجِنَت أجزاء جسمي بأجزاء أكثر من مئة عصفور وعصفورة، وعجنت أشلائي بأشلائهم، واختلط دمي بدمهم، الدم حار وأرض الجنوب في سجنها عطشى تنادي الصقور يا سيدي.. هل علمت الآن كيف تشكلت هذه العجينة؟.. وهل تعذرني لأنني لم أعرف فورًا من أنا؟..

هز رأسه النوراني بأسى وأردف قائلًا:

– سمعت منك عجبًا، وشوَّقْتني لأرى كرتكم الأرضية، تعال.. سأفتح نافذة من النوافذ السماوية المطلة على عالمكم، تعال ننظر سويًا إلى تلك الأرض التي كنت فيها.. انظر هذه هي أرضكم.. سهول.. جبال، وديان، بحار.. كم هي جميلة أرضكم هذه!..

ـ أجل جميلة عن بعد!..

ـ لنقرب الصورة أكثر.. آهِ ما هذا؟!.. دبيبٌ كدبيب النمل، غدُوٌّ ورَوَاح، حركة دائبة، سيارات، قطارات،



طائرات، بواخر!.. ما أعظمك أيها الإنسان!.. لنقرِّب أكثر!..

ـ أوه هذه هي لبنان.. هذا هو الجنوب.. هذه (قانا).. تلك!.. تلك الأرض الحمراء.. المصبوغة بالدم، هذه أشلائي وأشلاء أخواني، ما زالت نعانق التراب، أترى؟.. هنا.. كانت عملية العجن..

قطَّب رضوان حاجبيه وبدا عليه حزن ملائكي وقال بتأثر:

– لِنَرَ مناطق أخرى علَّنا نروِّح عن أنفسنا..

وراحت النافذة السماوية تعرض له ملخصًا للحركة الأرضية: قتال مستميت في الشيشان.. مئات الضحايا.. دودايف يفتح جرحه للشمس، راقصة باليه في أحد مسارح موسكو تستعرض لياقتها الجسدية آلاف الأيدي تصفق.. يد فلاح تزرع، آلاف الأفواه تأكل إنتاجه وتعبه، مجازر في البوسنة والهرسك.. آلاف القتلى.. عمليات اغتصاب.. سرقة.. نهب.. قتل.. مسجِّلةٌ تصدَح: (الليلة عيد عا الدنيا سعيد).. مؤامرات تحاك في الخفاء.. خطط إستراتيجية

وضع لقضاء الإنسان على الإنسان.. أناس بسطاء يريدون الحياة بحرية وكرامة.. تُسْتهلَك بساطتهم ويُسْتغَلّ شقاؤهم وتعبهم.. أكفٌّ مرفوعة نحو السماء تؤمِّن على دعاء.. عقولهم شاردة في عالم آخر ولا يعون على ماذا يؤمِّنون.. أفغانستان يتناطحون فيها كما تتناطح الخراف.. يهرق دم.. عيون ملأى بالدموع، آلاف اليتامى.. صوت المسجِّلة ثانية: (حبّ إيه اللي أنت جاي تقول عليه).. ولادات محاطة بوجوه فرحة متهلِّلة.. مبروك.. وفيات.. وجوه عابسة، مقطِّبة، دموع منهمرة.. عظَّم الله أجركم!.. شيخ بلحية بيضاء ووجه متجعد حفَر عليه الزمن أخاديد عميقة، أكفّه مرفوعة إلى السماء يطلب العفو والعافية والجنة.. عاهرة تبيع جسدها.. صديق يخون صديقه.. غِشّ.. خداع.. مكر.. سمكة كبيرة تأكل أختها الصغيرة!..

أغلق رضوان النافذة بعصبية وأردف قائلًا:

أوه!.. ما هذا العالم الذي تعيشون فيه.. ما هذا العالم المليء بالمتناقضات الغريبة العجيبة، أعماركم الأرضية نادرًا ما

تتجـاوز عُشْر يومٍ سـماوي واحد، وبهذا العمـر القصير جدًا، تقتلون، تنهبون، تكنِزون، تسـتهترون، تسـتعبدون،وكأنكم ستعيشـون الدهـر كلـه.. هـذا غريـب!.. غريب!.. لمـاذا لا تعيشون بسلام؟.. فأرضكم واسعة، وتكفي الجميع!.. فلماذا يعتدي أحدكم على الآخر ويحتل أرضه؟.. لماذا ينهب أحدكم لقمة أخيه مع أن الطعام وفير؟!.. لماذا يعيش شـعب كالعَلَق على خيرات شـعب آخـر؟!.. كلُّكم بنو آدم فلـماذا لايتعامل بعضكم مع بعضٍ كأخوة؟.. لماذا تتقزم الإنسانية بينكم لتفقد معناها؟.. أعمارکم قصيرة وآمالكم كبيرة، عدّلوا آمالكم على قـدر أعماركم، أنتم من الـتراب وإلى التراب، فلم لا تحكِّمون عقولكم؟!..

غضضـتُ الطـرف خجـلًا أمـام رضـوان مـن الأعمال البشرية ولم أُحِرْ جوابًا.. رمقني رضوان بنظرة عاتبة قائلًا:

- هـل هناك ما يغـري بالعيش على تلـك الأرض المليئة بالمتناقضـات؟.. أليسـت جنة الخلد هـذه أفضل من أرضكم بملايين المرات؟..

بادرته قائلًا:

- جدتي كانت تقول لي بأن من يموت صغيرًا يصبح عصفورًا من عصافير الجنة.. وأنا لا أريد أن اكون عصفورًا..

رضوان مستغربًا:

- وماذا تريد أن تكون؟

- أريد أن أكون صقرًا..

- يا صغيري عندما يزهر ربيع القلوب، ويُلْقَى الحقد في بئر منسية مردومة في صحراء مجهولة.. وتختفي الغربان إلى الأبد، فلا حاجة لأن تكون صقرًا..

نظرت إلى روحي فوجدت جناحين ملونين صغيرين ومنقارًا مدبَّبًا ناعمًا، زقزقت زقزقة خفيفة تعني:

- هل تسمح لي بالدخول إلى الجنة يا سيدي؟

رضوان مبتسمًا:

- لاتؤاخذني لقد تأخرت بإدخالك، لقد قلت لي إنك قد جئت ومعك قافلة من العصافير.. أهلًا بك وبمن معك!.. ادخلوها بسلام آمنين!..

٨- المحامي

السيارة تئن تحت حمولتها، الطريق يبدو له بلا نهاية، يمتد أمام ناظريه كأفعى سوداء ملتوية.. والشمس ترسل لهيبها في تلك الساعة من الظهيرة.. تتورد وجنتاه، وتتقاطر حبيبات عرق من جبينه فتتسلل إلى عينيه، يشعر بتخريش أملاح العرَق في عينيه يمسح جبينه بكُمّ قميصه، يضطرب الجفنان فيرفرفان كطائر مذعور، يعركهما بظاهر قبضة يده.. يعود ليحدق في الطريق مخافة أن تنحرف السيارة عن خط سيرها، صوت من المسجِّل يخترق أذنيه:

(بعيد عنك حياتي عذاب..)

تنشد القبضتان على المقود، ينضغط الفكّان أحدهما على الآخر، يتجعد الجبين.. (بعيد عنك حياتي عذاب..)..

الصحراء وامتدادها، والطريق الخالي إلا من عدد قليل من السيارات، الطريق الذي لا ينتهي، كل ذلك يزيد من شعوره بالوحدة.. بالبعد.. بالغربة.. يتكوَّر خلف المقود، ينكمش، يتلَوْلَبُ الحرمان داخله، ينتفض كأفعى..

أيـن الأهـل؟.. أيـن الخلان والأصحـاب؟.. أيـن أنتِ يـا زوجتـي العزيزة لأفـضي إليك بهمـوم قلبـي؟.. أين أنت لتخفّفـي عنـي مـا يعتمل داخـلي؟.. كم أتـوق إلى أن أجلس جانبـك، أتكلم.. وأتكلم.. أقصّ عليـكِ كل صغيرة وكبيرة أمـرُّ بهـا، بل كم أتوق إلى سـماع صوتك الدافئ يغسـل نفسي مـن أدرانهـا، يـزرع الحـب والأمـل والحيـاة، مسـكينة أنـت تجالديـن وتصبّرين نفسـك على البعد فتسـبحين معـي في بئر من الحرمان لا يتضب.. أحيا وكأنني لا أحيا هل أستطيع أن أسـمي هذا الضياع مـن العمر حياة؟.. إن كنت أسـتطيع أن أسـميها حياة فهي حياة أشـبه بحياة كلاب، فنحن مطاردون منبوذون كالكلاب الجُرْب.. فعندما تجتمع شـلة السائقين في (البرحة) تسـارع الشرطـة إلى مخالفتنا ومنعنا مـن الوقوف.. نحـن الوجـه المخزي بالنسـبة للبلـد.. ماذا يعني سـائق؟!.. يعنـي شـيئًا لا قيمـة له، يعنـي إنسـانًا منبـوذًا، يعنـي أنه من الطبقـة الدنيـا في هـذا المجتمـع، وليـس من يهتـم لأجله، إن هـو عاش أو مـات!.. نلاحَـق في أرزاقنا، في لقمـة العيش يا للسخرية!.. لماذا درست القانون؟.. لماذا ضيّعت ست عشرة سـنة من عمري في الدراسـة ألكي أصبح سـائقًا لسـيارة نقل

كبيرة تلتهم بعجلاتها آلاف الكيلومترات.. آهٍ.. القانون الذي درسته ينص بأن للجميع حقَّ الحياة الكريمة.. لابد أن الذي درسته في الكتب يبقى بين دفاتها ولا يرى النور إلا على مقاعد الدراسة.. كلام نظري في الكتب والواقع شيء مغاير له تمامًا.. الواقع.. الواقع.. الواقع أن المركز الاجتماعي هو ما أصبو إليه فقد مللت أن أكون منبوذًا.. مجرد سائق ينتظر زبونًا لينقل له حملًا من مدينة إلى مدينة، وعندما يأتي السيد الزبون يتحلَّق حوله عشرات السائقين كل يجذبه إليه، وكأنه يشحذ منه لقمة عيشه، شيء مقرف!.. كلما أتذكر هذا المنظر أحس أن شيئًا ما داخلي يتلاطم يريد أن ينطلق من فمي.. وعندما أكون سعيد الحظ وأستطيع أن أنتشل الزبون من بين كل تلك الأيدي الممتدة وتلك الألسن التي تحاول الجذب، يكون لي نصيب الأسد وهو مبلغ من المال قد لا يكفيني مصروفًا وأنا بانتظار حمل آخر والرسائل تتوارد من الأهل أرسل مبلغ كذا أرسل.. أرسل.. من أين لي أن أرسل؟.. من أين؟!..

الشمس تصبّ جام غضبها، يحس أن الإسفلت بات كقطعة إسفنج طرية تحت العجلات، ثيابه أحسها وقد

لتصقت تمامًا بجسده، وباتت ثقيلة لا تطاق، حرَّك جسده بضيق ظاهر، تأفَّف بصوت عالٍ وكأنه يريد بتأففه هذا أن يطفيء هذا اللهيب الذي يلفه من الخارج والداخل.. وعيناه كعيني نسر ما زالتا تحدقان في الطريق..

علبة حديدية متحركة تحمل عشرات الأطنان، أتكوَّم في زاوية صغيرة منها أقودها أحرِّكها تنطلق مسرعة، أودعتها نفسي، وضعتها تحت رحمة هذه العلبة الحديدية الصماء.. لا بد أنها المجازفة!.. المجازفة!.. لقد جازفت حين قررت العمل بعيدًا عن ترابي، فهربت مني سنوات من العمر، وضاعت في مجاهل الحرمان والغربة، تحطمت هذه السنوات داخل نفسي فترهَّل الشباب داخلي، وطرق السأم بابي فوجده مشرعًا، مللت الطرق، مللت المسافات، مللت السيارات، مللت هذا المقود مللت السفر، مللت التجوال، مللت الغربة!..

أتوق إلى الاستقرار، إلى الهدوء، إلى عمل ضمن اختصاصي ودراستي..

يقطع سلسلة أفكاره سيارة آتية من الاتجاه المعاكس، تترنح كسكرى، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تنشد



أعصابـه، يقبـض على المقود بقـوة، يخفف من سرعة سـيارته يلتجـىء إلى أقـصى يمـين الطريـق، ولكـن لا مفر فالسـيارة القادمـة متجهة إليه مباشرة، ليس أمامـه إلا الهرب بعيدًا عن الطريق، اندفع بسـيارته إلى الصحراء حيث الرمال الناعمة.. نزلـت السـيارة القادمة هي الأخرى على جانـب الطريق، ثم عـادت ثانية إلى الطريق المزفت واعتدل سـيرها، نظر في المرآة الجانبية ثم قال يحدث نفسه:

- المسـكين!.. إنه على الأغلب نائم وهو يقود سـيارته.. أأقـول عنـه إنـه مسـكين؟!.. وقـد كاد أن يصدمنـي ويودي بحيـاتي؟!.. أجـل إنه مسـكين فهو عـلى الأغلب تعـبٌ جدًا والمسـافة التـي قطعهـا كبـيرة، فكم من مـرة نمت وأنـا أقود سـيارتي وغفـوت عـشرات الكيلـو مترات والسـيارة تسـير وحدهـا!.. إنها المجازفة بعينهـا، والحياة على كف عفريت!.. آهٍ.. الرمـال الناعمـة اللعينـة إنهـا تبتلع العجـلات.. أوه!.. السيارة ستتوقف.. اللعنة!.. والعجلات تدور في أماكنها!.. ولا تتقـدم سـنتمترًا واحـدًا!.. أوه!.. لقد توقفـتْ، لا فائدة مـن الجلـوس الآن خلف المقود، يجب أن أنـزل وأزيح بعض

الرمـال من أمام العجلات، أو أضع بعض الأخشـاب تحتها، وإن لم يكـن هـذا ولا ذاك، فسـأجرب إفـراغ قليـلٍ من هواء العجلات..

مكتـب أنيـق، لبـاس نظيف، حـذاء لمـاع له كعـب ينقر الأرض نقرًا.. متهم يجلس متكـورًا تتلولب كلماته، ترتعش، ميزان العدالة معلَّق في صدر المكتب:

- بريء!.. صدقني إني بريء!..

- المهـم عندي هي الحقيقة.. الحقيقة هي فوق كل شيء.. العدل هو ما أصبو إليه وأسعى لتحقيقه، وإن كنت صادقًا في كلامك فلن ينالك أذى:

- ربنا يديمك ناصرًا للحق والعدالة..

أصابعـه تنغـرس في الرمـال تسـحبه بعيـدًا عـن طريـق العجـلات، ثوبه الطويل الملطخ ببقع من الشـحم، اكتسـبت بقعه لونًا جديدًا جادت به الرمال..

قطع من الخيش والخشـب دسَّـها تحت العجلات، عرق يتصبّـب مـن جميع أنحـاء جسـمه، الدمـاء تندفـع في عروقه مسرعة وكأنها تفتش عن شيء أضاعته..:

- بوصفي محامي المتهم، الموكل بالدفاع عنه، ألفت نظركم إلى أن لا توقعـوا عقوبة على هذا الإنسـان الـبريء!.. وهناك العديد من القرائن والأدلة التي تشير إلى براءته، ألتمس منكم يا سادة تحقيق التوازن بين كفتي الميزان المعلق فوق رؤوسكم قبل النطق بالحكم..:

- والآن وبعـد كل هـذه المحاولات لابد أنني سـأخرج مـن هذا المأزق.. سـأجعلها تمشي ببطء شـديد في البداية لئلا تعـود الرمال لابتلاع عجلاتهـا وبعدها أسرع باتجـاه الطريق المعبد، فالسرعة هنا منجاة..

قبض عـلى المقود بقبضتيـه، تجعّد جبينـه وتغضّن، عيناه تنظران إلى البعيد، وكأنهما لا تريان شيئًا، رجله اليمين تدوس على دعسة المازوت، ببطء شديد تتحرك السيارة، يشدّد قبضته على المقود، رأسـه مندفع نحو الأمام وكأنه يشجع السيارة أن تتقدم، تخرج السيارة من مرقدها، ينطلق مسرعًا باتجاه الطريق المعبد، تراوده فكرة.. يبتسم:

- إننـا محرومون من كل شيء ناعـم إلا هذه الرمال التي كادت تهلكني بنعومتها.. ما أحوجني الآن إلى حمام أغسل به

فسي جيدًا، فالرمـال ورائحة العرق شيء مزعج فعلًا ولكن أيـن هو الحـمام؟.. وأنا بيتي هـذا الطريق وهـذه الصحراء.. أيـن الغـرف والبيوت؟.. لقد اشـتقت إلى أن أكون بين أربعة جدران وسقف!.. أرتدي لباسًـا نظيفًا، أنام على سرير وثير، ووسـائد مريحـة تحيـط بي، زوجتـي تحمـل إلي فنجـان قهـوة الصباح، وتوقظني بقبلة، مع زقزقة العصافير وهواء الصباح المنعش.. آه أين أنا؟.. شيء يدعو إلى القرف والاشـمئزاز!.. الملـل قاتـل.. والغربة باترة، تبتر أيامًا مـن عمري وكأنها تهزأ بتلـك الأيام فتتسـاقط كوريقات شـجرة في خريف حزين.. الحـزن، الكآبة، الكبت، القلق، المـوت، كلمات أتجرَّع طعمها وأنـا وراء هذا المقـود، في هذه العلبة المتحركة، الطريق ما زال طويلًا!.. عسـاني أفرغ حمولتي بسرعة في الدمام.. وأجد حملًا إلى الرياض مباشرة..

حدق في الطريق عبر زجاج السيارة بعينين تشبهان عيني نسر، وصوت المسجِّل ما زال يصدح:

(بعيد عنك حياتي عذاب..)



٩- بنْزين

ـ هيه!.. يا الله!..

ـ مع بعض يا شباب..

قهقهةٌ يتلوها صوت حادٌّ عالٍ صائحًا:

ـ بنْزين!.. بنْزين!..

ـ واحد.. اثنين.. ثلاثة.. ادفعوا!.. يا الله!..

ـ ادفعوا دفعة رجل واحد!.. يد الله مع الجماعة..

ـ بنْزين!.. بنْزين!.. احرق بنْزين!..

الصخرة لا تتحرك وكأنها ملتصقة بالأرض، وستة من الشباب يدورون حولها كالنمور يتفحصون من أين تؤكل الكتف.. والصوت يرافق كل حركة دفع صائحًا:

ـ بنْزين!.. بنْزين!..

ـ ضع قطعة خشب هنا.. ارفع من هناك.. مع بعض.. مع بعض..

ـ من الصعب دحرجتها، كسّروها في مكانها، هاتوا (كوم بريسة) وبساعة من الزمن تصبح قطعًا صغيرة!..

النمور تصول وتجول حول الفريسة والمحاولات تترى والصخرة العنيدة تقاومهم والموسيقى التصويرية المرافقة مستمرة في عزفها: بنْزين!.. بنْزين!..

أحد المتفرجين انزعج من ذلك الصوت الحاد الذي يصيح: بنْزين، فاقترب من أحد أصدقاء الشاب الصائح، وقال له:

- لِمَ يصيح هذا الشاب وما قصته مع البنْزين؟..

ضحك صديقه وقال:

- كان الحلم الكبير لصديقي هذا هو أن يشتري موتورًا (دراجة نارية).. كان هذا هو الهدف الذي يضعه أمام عينيه، وكل تفكيره ينحصر في هذا الهدف، ولا هدف آخر يعلو عليه، كان يتكلم عن (الموتور) وكأنه يتكلم عن صبية حسناء امتلكت فؤاده، لكنه لا يملك مهرها، فالمهر غال والجيب فارغ، ومن أين له بالمال ما دام الفقر صديق له؟.. لكنه تعب وشقي ووضع القرش فوق القرش وصبر كثيرًا حتى تحقق حلمه واشترى (موتورًا)، عندها لم يكن ينْزل عن ظهره فكان يركبه دائما بضرورة وبغير ضرورة والسعادة تقفز



مـن عينيه، وهـو ينطلق كالصاروخ يشـق الهواء شـقًا، مترنمًا بأجمل موسـيقى.. هي تلك التي تصـدر عن (الموتور).. لكنه بعد أشـهر وجد نفسه لا يستطيع أن يجمع بين تكاليف حياته وثمن البنْزين، فاضطر إلى بيع (الموتور) وتبخر الحلم.. وحل محلـه حرقـة في القلـب وغصة وهو منـذ ذلك الحين بمناسـبة وبغير مناسبة يصيح بنْزين!.. بنْزين!..

أخـيرًا.. اسـتطاع النمـور دحرجة الصخـرة وبرهنوا لها أن إرادتهـم أقوى من عنادهـا، ووقفوا وقفـة المنتصر فرحين لاهثين واندلع الصوت الحاد صائحًا:

- بنْزيـن!.. بنْزيـن!.. الله يعطيكـم العافيـة!.. الآن أنتم أيضًـا تحتاجـون إلى البنْزين فقـد صرفتم الكثـير!.. بنْزين!.. بنْزين!..



١٠- دردشة

ساعة قديمة معلقة على جدار غرفة النوم، رقاصها ينوس يمنة ويسرة، كأنه نول يحوك خيوط الزمن الهارب..

تناهى إلى سمع كمال الذي يغط في نوم قلق صوت أربع دقات على ناقوس الساعة، انتبه من نومه، تحسس السرير بجانبه وعيناه مغمضتان، لم يجد زوجته، فتح عينيه بانزعاج، حدق بالسرير على ضوء الغرفة الواني - ذاك السرير الذي شهد ليلة زفافه الأولى - بغيظ وحنق بالغين تدحرجت الكلمات إلى قرارة نفسه:

ـ حتى الآن ما زالت تجلس إلى الكمبيوتر؟!.. يا لهذا الجهاز اللعين!.. أمعقول أن تجلس إليه كل هذا الوقت بلا كلل أو ملل؟!..

ما الذي يشدها إليه إلى هذه الدرجة؟.. فهي على هذه الحال منذ عدة أشهر، تختلق مشكلة وتدخل غرفة الكمبيوتر، وتوصدها من الداخل، ولا تسمح لأحد بولوجها ما دامت فيها.. لقد أهملت الأولاد!.. أهملتهم في طعامهم، في

لباسـهم، في دراستهم، أهملت البيت أهملتني.. آه!.. ما الذي حصل؟.. لقد انقلبت حياتنا كلنا رأسًـا على عقب لقد أصبح البيـت جحيمًا لا يطاق.. آه!.. لقد كلّ لسـاني من جراء ترداد الطلـب إليها الاهتمام ببيتها وأولادها وبي أيضًا.. لكن.. على من تنادي؟!.. ليس هناك من مجيب!.. العقل أرخى سدوله، وعلى العينين غشاوة لا ترين، وكما يقول المثل العامي (فالج.. لا تعالج).. آه!.. لقد امتطى الملل صهوة نفسي، هذا الفارس المقيت، راح يقتل الكلمات على لساني قبل أن تنبس بها شفتي، ماتت الكلمات قبل أن تولد.. وهل للميت قوة التغيير؟!..

عشرون عامًا مذ تزوجتها.. لم تكن بهذا الإهمال يومًا كما هي اليوم.. أنجبنا أربعة من الأولاد، كبراعم الورد الجوري، التـي لم تتفتح بعد، كان جهدنا منصبًا عـلى تأمين حياة لائقة، فغمرناهم بحبنا وعطفنا وحناننا، آملين لهذه البراعم أن تتفتح عن ورد يفوح عبيره في بستان هذه الحياة..

حياتنـا الزوجية مرت هادئـة رتيبة نوعًا مـا، خلا بعض الخلافـات البسـيطة التـي لا تخلو منهـا حياة زوجيـة، والتي يسـميها البعض (فلفل الحيـاة الزوجية).. ولكنني أرى اليوم

أن الفلفـل قـد طمى ولم يبـقَ غـيره وأصبح مـذاق حياتنا لا يطاق..

أحسَّ بالخدر يسري في جنبه الأيمن فتقلب إلى الأيسر، وتداعـت أفكاره بـين اليقظة والمنام، تسربلـت أفكاره بغلالة رقيقـة ضبابيـة.. ناسـت كلماته داخل نفسـه كرقاص سـاعة حائطه القديمة:

لعـل كل شيء لا يتحـرك يصيبه الخدر، فالحيـاة الراكدة في طريقهـا إلى الخـدر ثم الـزوال.. لا بد مـن التجديد.. لابد مـن الحركة.. لابد من التغيير.. آه!.. ولكن هذا التغيير الذي قلـب حياتنا رأسًـا على عقب، هل يعنـي التجدد في الحياة؟.. وهل هو تغيير نحو الأفضل أم نحو الأسوأ؟..

أشـعر أنني أهوي في بئر سـحيق مظلم، وللأسف أشعر أن الأولاد يتبعـون خطاي ويهوون كما أهوي.. حياتنا فقدت طعمهـا وتخلـت عـن دفئهـا.. فهل ثمـة زوجة تهجـر فراش زوجهـا لعدة أشـهر من أجل جهـاز لا روح فيـه؟.. حجتها الواهية ما زالت تتجذر في أذني:

ـ الكمبيوتـر عالم قائـم بذاته، بالمعلومـات التي يحتويها، بشـبكته العنكبوتية، التي تضع العالم كله بين يديك، فأنا مثلًا أقـضي معظم سـهراتي التي أترككم بها أتصفـح (الإنترنت)، أتواصل مع أختي في اسـتراليا، أسهر معها أكلمها وتكلمني، أراهـا وتـراني، أتجـول في بيتهـا.. في حديقتهـا.. أليـس هـذا رائعًا؟!.. العالم كله قد تغير..

ـ ليتنـا نأخـذ مـن هذا الجهـاز محاسـنه فقـط ونبتعد عن مسـاوئه فهـو سـلاح ذو حديـن.. فلنسـتعمله أداة بنـاء ولا نستعمله أداة هدم.. لكن قولي لي:

هـل مـن المعقـول أن تسـهري كل يوم مع جهـازك ومع أختـك وتهملي عائلتك وبيتـك وأولادك؟!.. كما لك حقوق علينـا، لنـا أيضًا حقـوق عليـك.. أليـس كذلك؟.. لماذا لا تجيبين؟..

تتلفـع بصمـت ربـما كان يعنـي الكثـير.. ربـما كان هذا الصمـت يُخمّر وجـه الحقيقـة، ويعتم على ما يحصـل في تلك الليـالي الداجية.. ولكن ماذا يمكـن أن تفعل امرأة وحيدة في غرفة موصدة من الداخـل؟.. يزعجه هذا التفكير، يتململ،



يغزو النوم جفنيه، يستسلم لسنة من النوم تحاول الأحلام التسلل إلى مخيلته، لكن شيئًا ما داخل نفسه كان يكبلها ويرميها أسيرة مهيضة الجناح..

صوت المؤذن ينساح عبر أثير الغرفة، مناديًا لصلاة الفجر، تدغدغ سمعه كلمات الأذان: الله أكبر.. الله أكبر.. ينتشل نفسه من سرير الأحلام الأسيرة، تغزوه أفكار اليقظة، يعاوده صوتها ويخزه كالإبر:

ـ لماذا لا تغازلني؟!.. لماذا لا تقول لي كلامًا حلوًا؟!..

ـ عشرون عامًا مضى على زواجنا، هل تريدينني كما أنا في أيام الخطبة على الدوام؟.. وهذه العِشْرة التي بيننا أليس رباطها أمتن من الكلمات؟.. ألا تحمل لك معاملتي الطيبة ونظراتي الحانية كل معاني الحب، بل لعل الكلمات تقف عاجزة عن التعبير عما تحمله نظرة حب واحدة..

آه!.. كم من مرة جلدتني بنظراتها، وهي تنتظر كلمة إطراء أو غزل، هل أنا مقصر في هذه الناحية؟.. لعلها ثغرة في حياتنا العاطفية!.. لكن هل من الممكن أن يستمر المرء في مغازلة زوجته طول العمر؟.. إنني أحبها وقد أسكنتُها قلبي،

لكن عجلة الحياة التي تطحننا قد تنسينا حتى أنفسنا أحيانًا.. أوه!.. فلأذهب إليها وأمطرها بوابل من الكلمات التي تحبها، وتروي زهرات أنوثتها..

انتهى المؤذن من ندائه، عم الجوَّ هدوء يشي بشيء ما، لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة، أو.. أو.. راح يسترق الخطا باتجاه بابها.. الباب غير موصد على غير العادة.. لعلها فتحته بعد أن خلدنا إلى النوم، اقترب من باب الغرفة، سمعها تتكلم، تجمَّد في مكانه كرجل من الجبس له عيون لا ترى لكن له آلاف الآذان التي تسمع دبيب النمل.. ضحكات خافتة، كلام عشق وغزل وهيام مبتذل رخيص، كلمات تحاكي كلمات بنات الليل في المواخير.. اقشعر جلده، أعصابه شُدّت كوتر، سحابة سوداء خمّرت عقله.. انطلق كالمجنون إلى داخل الغرفة.. عيناه تنقبان.. تبحثان بقلق بالغ عن المعشوق.. ندت عنه صيحة مطعونة في كبدها:

ـ أين هو؟..

كانت وحيدة في الغرفة مع كمبيوترها، كانت مستلقية وهي عارية تمامًا أمام عدسة الكاميرا، وعلى الشاشة صورة رجل عار هو الآخر، كان هو الطرف المحاوَر..

هزيم الرعد في صوته.. انهيارات وبراكين اندفعت إلى سطح نفسه، السائل البركاني أحرق كل الأيام الجميلة، بثانية واحدة، أحرق المودة أحرق الرحمة، قتل الحب فسال دمه كلماتٍ متسائلة مستغربة:

ـ ما هذا؟؟؟!..

ـ لا تُسِئ الظن!.. إنها دردشة!..

ـ ماذا؟!.. دردشة؟!..

وانطلقت من فمه ثلاث رصاصات أردَتْها مطلقة:

ـ أنتِ طالق!.. طالق!.. طالق!..

رقاص الساعة القديمة في الغرفة المجاورة كان ما يزال ينوس يمنة ويسرة، كنول يحوك خيوط الزمن الهارب!..



١١- رجل بلا شوارب

- والله لقد تعبت كثيرًا.. لقد مللت هذا العمل.. فأنا منذ ما قبل العاشرة من عمري وأنا أكد وأتعب وأشتغل.. أنا برقبتي عائلة.. أخوة صغار ربيتهم.. أنا أكبرهم.. صبيان وبنت.. تصور ثلاثة أطفال والطفل الرابع الذي هو أنا هو المسؤول عن تربيتهم وتأمين حاجياتهم من طعام وشراب وطبخ وغسيل.. أنا أم، وأب، وأخ.. أنا لم أعش طفولة أبدًا، لقد ولدت رجلًا مباشرة لكن دون شوارب!.. لذلك تزوجت وأنا في السابعة عشرة من عمري، حتى تحمل عني هذه الزوجة بعض أعباء البيت، حياتي كلها ركض بركض.. تصور أن الحصان يركض زمنًا معينا، بعدها لابد له من الاستراحة، أما آن لي بعد عشرين عامًا من الركض في مهنة (نجارة البيتون) أن أستريح؟!..

بهذه اللهجة السريعة والجمل المتقطعة ومن بين لهاثه، أثناء دقه المسامير في ألواح الخشب كان يتكلم عن ماض، وحاضر، وكأنهما الآن يرتسمان بين مطرقته ومسماره. دهشت

لهـذه العفويـة في الطرح ولهذه النَفْس التـي حُمِلَت من الأعباء والهموم ما ينوء بحمله رجال ذوو شـوارب معقوفة، وعقول راجحة، قلت كمن يقرر شيئًا بديهيًا:

- إذن أبوك متوفى!..

- ليته كان متوفى، لكنا استرحنا منه!..

- مـا هـذا الـكلام؟.. هـل يتكلـم أحـد عـن أبيـه بهذا الشكل؟!..

- أبي.. هـو الـذي دمرنـا وجعـل حياتنـا جحيـمًا.. كان يتعاطى المخدرات، فأهدر ماله وكل ما ورثه عن أبيه وبعدما عولج وتخلص منها، أدمن الكحول ولا يزال، فماذا ترجو من مدمن؟..

- وأين أمك وما هو موقفها من كل هذا؟!..

- كانـت على شـجار دائم معه وتركت لـه البيت العديد مـن المرات، وفي مـرة من هذه المـرات تركتني عنـده، وأنا في الشـهر الثاني من عمري، لتشعره بعبء المسـؤولية.. أتعرف مـاذا فعل؟ لقـد حملني إلى بيـت أهل أمي، وطـرق الباب ثم وضعني على عتبـة الباب وانصرف لكن الموجودين في البيت

لم يسـمعوا الطـرق، فأتى كلـب وحملني بأسـنانه وولى هاربًا، انتبـه أحد الجـيران فلحق بالكلب وخلصني مـن بين أنيابه.. شيء لا يصدق أليس كذلك؟..

نظر إلي وابتسم ابتسامة صغيرة بينما كانت مطرقته ما تزال تطرق الخشب وكأن بينها وبينه ثأرًا قديمًا، ثم تابع قائلًا:

- وبعـد أن أنجبـا أربعـة أولاد اسـتحالت الحيـاة بينهما فـكان الطلاق، بعد ذلك مباشرة تـزوج أبي وتركنا لنعيش في بيـت جدي لأمي، لكن بيت جـدي كان صغيرًا جدًا، وحالة جدي المادية ضعيفة جدًا مما دفع بأمي إلى القبول بالزواج من رجـل بعمر أبيها، أما أنا فلـم أرض أن أعيش عبئًا على جدي الفقـير ففكـرت مباشرة أن أبـدأ بالعمل وهذا مـا كان وأنا لم أبلـغ العاشرة بعد، ومـا إن تجمَّع لي بعض المـال حتى فكرت باستئجار بيت يضمني وإخوتي لكنني عانيت كثيرًا في البداية إذ لم يـرضَ أحـدٌ أن يؤجـرني بيتـه ومن يـرضى أن يؤجر بيته لطفـل في العاشرة.. كم تمنيت يومها أن يكون لي شـوارب!.. تدخَّل بعض أولاد الحلال لدى أحدهم فأجَّرني بيته، وهكذا

صرت مسؤولًا عن عائلة، أمي توفيت بعد سنوات قليلة.. لقد ماتت من حسرتها علينا، زوجها الثاني كان نادرًا ما يسمح لها بزيارتنا أو بزيارتنا لها.. أختي تزوجت والحمد لله.. وأخي هذا الواقف أمامك عندما كان صغيرًا سقط من على سطح البيت عندما كان أبي مشغولًا بحمامه المحلق بالجو، إذ كان الحمام عنده أفضل من أي واحد منا.. وكانت نتيجة السقطة يدًا كتعاء، وارتجاجًا بالدماغ لم يشفَ منه حتى الآن، وأخي الثالث حاليًا يقضي حكمًا بالسجن لمدة سنتين..

– بالسجن!.. ماذا فعل؟

– كان يعمل في لبنان وكان يدخر المال الفائض عن مصروفه مع صديق له متزوج وذلك خوفًا عليه من السرقة لأن سكنه غير آمن، وعندما قرر المجيء إلى سورية استرد المال من صديقه وحين ذهب لكي يبدل الدولارات إلى العملة السورية قبض عليه لأن جميع ما كان يحمله من دولارات كانت مزيفة، وأنا أعرف تمام المعرفة أنه مظلوم، أنا مربيه.. لقد سرقه صديقه!..

نظر إليَّ ثم قال:

- عائلة زرع فيها البؤس فهل تستطيع أن تجني غير الشقاء؟..

- وأنت أليس عندك أولاد؟..

- عندي ثلاثة أولاد وأنا أكد وأتعب الآن من أجل تأمين مستقبل جيد لهم، وإنني أعلمهم أفضل تعليم لعلي أترك لهم في فمهم ولو ملعقة من تنك، فملاعق الذهب بعيدة عن أمثالنا..

وراح يتابع عزفه لمعزوفة المطرقة على المسمار والخشب وكأنه نسي التعب والملل، بل نسيني ونسي كل ما حوله..





١٢- سأحقق وجودي

قال:

- أحبك!..

خرجت الكلمات من فيه لتروي غابة الحب المورقة في قلبها..

لقد قالها أخيرًا.. أحبك.. لشدَّ ما انتظرتْها، كانت تستقرئها في عينيه، في نظراته، في لفتاته، لكن نظراته الضبابية لم توحِ إليها إلا بالغربة، كانت تشعرها بأنها نظرات بلهاء، لا توحي بأي عاطفة، وحينًا آخر كانت تلك النظرات تتلمسها، فيختلج جسدها، يطَّرِد وجيب قلبها، تحمر وجنتاها، ترتبك حركة أعضائها.. يديها.. عينيها.. مشيتها، كل شيء يضطرب، وهي تسبح في ذلك البحر من الأمل..

قلبي ينبوع متفجر يفيض له بكل ألوان الحب، أتغذى بمرآه، وأشرب ضحكاته، وأكتحل بصورته قبل منامي ليكون حلمي الجميل في ليلي الحالك الظلمة..

آه.. يتلولب حبه في قلبي فأرعاه وأنميه، بعيدًا عن العيون الفضولية، بعيدًا عن الأفواه.. بعيدًا عن الكلمات..

هـل أسـجنه في قلبي؟!.. هـل أبعده عـن النور والهـواء لئلا يحـترق كقطعـة فوسـفور.. فيفتضـح أمـره؟.. إن مـا يزيدني حرقـة نظراتـه تلك.. نظراتـه البلهـاء التي لا توحـي بشيء، نـيران نيرون في قلبي.. وقطب متجمـد في قلبه!.. ما أصعب الحب من طرف واحد!.. ما أصعبه!..:

- أجـل أحبـك يا ريـم.. لماذا شـحب وجهـك؟.. لماذا تنظريـن إلي هكذا؟ أنا سـامر الذي كنت تحرسـينه بنظراتك، وتحملـين لـه بداخلـك مـا تحملـين.. لعبنـا في الحارة سـويًا، تراشـقنا بالصواريخ الورقية، أكلنا مناقيش الزعتر، عدونا في طـول الحارة وعرضها، لعبنا عروسـة وعريـس، ضربتُ ابن الجيران يومًا لأنـه أراد أن يكون العريس، إذا كانت العروس هي ريم فلا عريس لها سواي.. أفهمتم؟!..

قالهـا بعفوية وهـو يكيل الضربـات لابن الجـيران.. كنا صغارًا، وشربنا السـنوات سـنة بعد سـنة، وأزهر حب سامر في قلبـي وأثمـر.. ولكن.. لكـن أين عريس الأمـس؟.. لقد استبدل بحماسـته لي نظـراتٍ لا تحمـل أي معنـى، النظرات البلهـاء تلك.. ثلوج جبل الشـيخ، ثلوج القطب، تتكدس في

لبه فجمدّت نظراته!.. تُقْتُ إلى نظرة حرّى تنتشلني من آبار البعد و الغربة الجليدية،كنت كعصفورة خائفة لم ينبت ريشها بعـد، تنتظـر المنقار الذي يـأتي ليتعانق مع منقارهـا، ويعطيها أكسـير الحياة.. يمدها بالدفء والحنان والمحبة..كنت أخاف ألا أحصـل عـلى ذلك الإكسـير يومًـا، لكنه قالهـا اليوم أجل لقـد قالها اليوم، قـال: أحبك!.. لقد هرب الـدم من أطرافي، من وجنتي، مـن عروقي، إلى قلبي الذي تسـارعت ضرباته، حتى خيل إلي أنني أسـمعها بأذنيّ ويسـمعها هـو أيضًا.. عالم من السـعادة انتثر علي كرذاذ منعـش في صيف حار.. حلقت في دنيـا جميلـة حلوة لم أعرفهـا من قبل، قبضت على السـعادة متلبسـة بنشـوتها واسـتودعتها قلبـي، تاهـت الكلـمات على شـفتي، ماتت مئات الجمل، قبـل أن أرد عليه بتلك الكلمات الراعشة اللاهثة:

ـ ماذا قلتَ؟..

ـ قلتُ إنني أحبك يا ريم!..

ـ لقد سمعتَ نداء قلبي إذن..

ـ نداء قلبك؟.. نداء قلبك سمعته من قبل أن أولد، فهو يعيش في كياني، في حركتي، ومقامي..

ثم قال باسمًا وكأنه أراد أن ينبهها بأنه ليس غبيًا:

ـ ونظراتك إلي كانت تؤكد حبك لي أكثر وأكثر..

ـ آه يا حبيبي!..

ـ حبيبتي أنت!.. سيثمر حبنا هذا، ستكونين زوجتي، والمتربعة على عرش قلبي يا مليكتي الجميلة..

عاشت الحب، عاشت السعادة، بكل أبعادها، حلّقت في جو لازوردي جميل، حملها الخيال في لياليها إلى جزيرة نائية بعيدة عن العيون، تعيش فيها مع سامر كعصفورين غِرِّيدين، يزرعان الألحان ويقطفان الحب..

عام كامل انتشت فيه برحيق الحب، بنت في أحلامها العش الزوجي الذي سيضمهما والأولاد.. وأسماء الأولاد..

ـ سأسمي الولد الأول ربيعًا.. اسم جميل كربيع حبنا، وحبنا كله ربيع، ليس فيه خريف اطلاقًا، والولد الثاني سأسميه.. والولد الثالث..

وكانت نظرة.. لقاء عابر غير منتظر.. رأته ولم يرها.. شهقت، خرجت كلمات من فيها:

- آه يا إلهي ما هذا؟!..



أحسـت بطعنة نجـلاء تمخر عباب قلبهـا الزاخر بالحب والأمـل.. فنَـزف الحـب، وطرح صريعًـا عـلى أرض الخيانة والكذب والنفاق..

ـ يتأبط ذراع فتاة غيري؟!.. هل نزع حبي من قلبه وألقاه لتلك الشقراء لتنهشه كذئبة جائعة؟!.. هل رمى بذلك الحب في مهاوي النسـيان؟!.. لا!.. لا!.. لا أصدق.. مستحيل!.. ولكـن ما هذا الخاتم الـذي يلتمع في إصبع يده اليسرى؟.. آه لابد أنه قد تزوجها.. يا.. وأنا ماذا عني أنا؟.. آه ضياع ووهم وسراب.. وكلماته ماذا عن كلماته؟..: (حبيبتي أنتِ.. سيثمر حبنـا هذا سـتكونين زوجتـي.. والمتربعة على عـرش قلبي يا مليكتي)!..

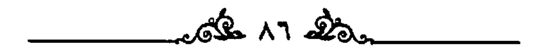
هـراء.. كلام فارغ يجتره كما تجتر الجمال.. البيت الزوجي الأولاد.. أسماء الأولاد.. وهم خادع؟!.. خيال؟!.. خرافة.. كنت أؤمن بها.. كيف؟ كيف؟.. كيف ذلك يا إلهي؟!..

راحت تجر جسدها وروحها المطعونة، ذلك الجسد الذي يرتجف وكأنه تحـت وطأة تيار كهربائي، باتجـاه بيتها.. قرأت التفاهـة في الوجوه، رأت كل العيون دائرية الشـكل كحلقة،

رأت الثعابين والأفاعي وهـي تتدثر الحقارة داخل الصدور، أوحـى إليهـا صخب الشـارع وضجيجـه بهدير بحـر يموج بالقـرف.. كانـت تحرص في مشـيتها ألا تتلامـس مع أي من المـارة، كانت تخـاف أن تتلوث من ذلك الوحـل الذي يغطي طبقات من الغدر والخيانة.. أحسـت وكأن قواها قد أبحرت بقارب ابتعد عنها فجأة إثر موجة عاتية..

ألقت بجسـدها الصريع على سريرهـا، ولاح لها للحظة فكرة باهتة بأن السرير لن يسـتطع حملها هي والآلام المحشوة في رأسها.. تجاذبتها أفكار اليأس، استشعرت الهزيمة.. صراع مريـر، انهيـارات وزلازل داخـل رأسـها وبـركان في القلـب ثائـر.. دموع انهمرت من عينيها علَّها تخفف من بركان قلبها، وتقتل جرائيم هذا العالم وتغرقه في طوفانها.. دموع.. ودموع ودموع!.. ومن خلال الدموع:

- الحـب.. ما هو الحـب؟.. الكلمات المنمقـة الحلوة؟.. الوعـود؟.. الأمـل؟.. السـعادة؟.. الوهـم؟.. الضيـاع؟.. الضياع؟..



استشعرتْ من كلمـة الضياع لدى نطقها خوفًا يتسـلل بدناءة إلى روحهـا، ليتكلَّب بها، خافت.. انتفضت.. صحت من صدمتها تلك صاحت بأعلى صوتها:

- لا!.. لا!.. لن أضيع، فمن المؤكد أنني ما خلقت لكي أضيـع، بـل خلقت كي أحقـق وجودي، خلقـت لشيء أجلَّ وأسـمى من الخضوع والذل والانكسـار.. أنا أصلب من أن أكسر، ولن أرضى الإهانة، فأنا إنسانة وسأحقق وجودي!..

مسـحتْ دموعهـا بكفيها، وانطلقـت إلى نافـذة غرفتها وفتحتهـا بهدوء بالغ وراحـت تنظر إلى الأفق البعيد وشيء ما يدور في رأسها!..



١٣- سمكة حرة

توقفت السيارة، نزلت العائلة بأكملها، تنفس عبد الله الصعداء، زفر زفرةً أصدرت صوتًا عاليًا يشبه الصفير، وقال كمن خرج من قوقعة ضيقة كادت أن تكتم أنفاسه:

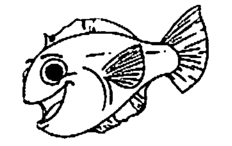
- آه لقد كنا مكدسين بعضنا فوق بعض كأفراخ السمك في علبة سردين. علق الأب هازلًا مضفيًا على الجو نوعًا من المرح:

- سمك السردين يا بني عندما نخرجه من العلبة يكون بلا رؤوس، أما نحن فما زلنا نحتفظ برؤوسنا.

صاحت الأخت الصغرى وهي تحرك يديها حركات بهلوانية إلى الأعلى والأسفل قائلة:

- ونحتفظ بحركتنا يا بابا، أما هو فلا يتحرك.

ضحك الجميع ولف السرور الجميع بردائه.



يافطة كبيرة على مدخل واسع لمطعم فخم، كتب عليها بالخط العريض (سمكة



حرة)، وبجانب هذه الكتابة رسم لسمكة رافعة زعنفة ذيلها إلى الأعلى وكأنها شراع يتحدى العاصفة. لفتت هذه العبارة انتباه عبد الله حملق بعينيه الواسعتين برسم السمكة وذيلها المنتصب، تأملها جيدًا، حك رأسه، ثم راح يحدث نفسه:

- السمكة الحرة.. أم.. أم.. سمكة حرة.. جميلة هي الحرية.. لعل هذه السمكة قوية جدًا حتى استطاعت أن تفرض نفسها على الجميع وتكون حرة، ولكن هل الحرية تستدعي أن يكون الحر قويًا حتى يمتلك الحرية ويحافظ عليها ويمارسها؟!.. وإلا لا يكون حرًا؟!.. آه من المؤكد أن هذه السمكة تسبح عندما تريد، وتلعب عندما تريد، وتذهب حيثما تريد، تأكل ما تشتهي إنها تنفِّذ كل ما يجول في رأسها المدبَّب هذا، إنها حرة.. سمكة حرة!.. يا الله ما أجمل حياتها بل ما أجمل الحرية!..

تحلق الجميع حول طاولة أنيقة داخل هذا المطعم الفخم، مراعين العادات والتقاليد المتبعة في مثل هذه المطاعم التي تحمل نجومًا لا أدري ما عددها.. مراعين طريقة الجلسة.. الكلام الهامس.. الضحك الخافت.. وحتى طريقة استعمال



السـلاح القابـع عـلى الطاولـة المؤلف مـن الشـوكة في الجهة اليـسرى والسـكين في الجهة اليمنى والذي يسـتعمل عادة في المعارك التي تدار رحاها على طاولات تلك المطاعم..

اقـترب النادل من الطاولة برصانة مبالغ فيها، مرتديًا بزة سـوداء داكنة وقميصًا أبيض منشًّـى القبة وربطـة عنق حمراء اللون، تحسـبه للوهلة الأولى أحد المسؤولين الكبار في إحدى الهيئات الدبلوماسية.. انحنى قليلًا وهو يقف بجانب الأب، وقال هامسًا:

- ماذا تريدون أن تأكلوا حضرتكم؟..

التفت الأب إلى أفراد عائلته قائلًا:

- هيه!.. ما رأيكم؟!.. ماذا تحبون أن تأكلوا؟..

- كما تريد!..

- لحمًا مشويًا!..

- كبابًا!.. وشيشًا!..

- سمك!..

- لدينا سـمكة حرة يا سـيدي.. ومطعمنا متخصص في هذا النوع فما رأيكم؟

- أجل.. سمكة حرة!..

حملـق عبد الله بوجه النادل، تأمله مليًا وهو ينطق كلمتي (سـمكة حـرة)، طغـى عليه فضـول حـب المعرفـة، أراد أن يعـرف كيف تكون هذه الحرة، وهل هي بالفعل حرة، وكيف تعيـش؟.. كيف تمارس حريتها؟.. وهل ذيلها منتصب باتجاه الأعلى كما رآه في الرسم على اليافطة؟ وهل يتحدى الأمواج؟ ويهزأ بالريح؟ وهل؟.. وهل؟.. وهل؟..

قـال للنادل بصوت مرتفع، لفت إليه انتباه الجالسـين إلى الطاولات المجاورة:

- أريد أن أرى هذه الحرة..

- لا بأس تفضل معي!..

انطلـق عبـد الله مسرعًا خلف النادل يحـدوه أمل كبير في أن يرى الحرية في أزهى صورها وأبهاها، لطالما حلم بالإنسان الحر، لطالما حلم بعناقيد الحرية تتدلى وقد آتت أكلها..

قال كمن يكلم نفسه:

- لقد سـبقتنا هذه السـمكة، نحن بني البـشر، واعتلت صهـوة الحريـة، ومـا نحـن ببالغيها إلا بشِـقِّ الأنفـس، فكم

ناضلت شعوب وكم ضحت في سبيل نيل استقلالها وحريتها، كم رُوِي ترابٌ بدماء وصُبغ بلون عندميٍّ قانٍ، كم وكم نصبت أعواد مشانق للمطالبين بهذه الحرية.. آه.. وهذه السمكة تعتلي عرش الحرية!.. ما أروعها.. لعلها ضحت كثيرًا.. لعلها ناضلت كثيرًا أم لعلها ولدت هكذا حرة؟.. كما قالوا بأن الإنسان يولد في الدنيا حرًا، لعلها كذلك..، ولكن لا أدري من أباح لصيادي الحريات أن يقنصوا حرية الآخرين ويجعلوهم عبيدًا أرقاء، ظهورهم جاهزة دائمًا للامتطاء.. آه.. هذا العالم ما أعجبه؟!.. البعض يمتطي والبعض يُمْتَطى، البعض يستعبد والبعض يُسْتَعْبَد، البعض يقتل والبعض يُقْتَل!..

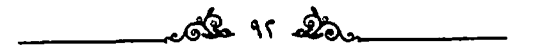
صحا على صوت النادل وهو يقول له:

- تفضل انظر هذه هي السمكة الحرة..

- كيف تقول إنها حرة؟.. إنها ليست حرة إنها حبيسة هذه البحرة الصغيرة!..

ضحك النادل وقال له:

- ألا ترى إنها حية؟ انظر إنها تسبح!..



- إذا كانت حية فهل هذا يعني أنها حرة؟..

نظر إليه النادل باستغراب وراح يؤكد له ثانية:

- انظر.. انظر إليها يا سيدي، إنها حية.. إنها تسبح..

بركة صغيرة ألقي فيها عشرات الأسماك، فلا تستطيع السمكة منها أن تمارس سباحتها بشكل طبيعي لضيق البركة وازدحام الأسماك، نظر عبد الله إلى بركة السمك وجفناه يرفرفان كجناحي فراشة اقتربت من النار، محاولًا إمعان النظر ليرى كيف تستطيع هذه السمكة من ممارسة حريتها في هذه البركة الصغيرة.. أدار ظهره للنادل، راح يتأمل البركة وما فيها.. وهو يكلم نفسه وكأنه يحاور السمكة:

- حرة!.. حرية!.. تبًا لكِ ولهذه الحرية الضيقة، من أين سرقت هذا الاسم الضخم (الحرة)؟.. يا من تسكنين هذه البركة الشبيهة بالبوتقة، يا حبيسة هذه الحفرة!.. يا حبيسة كل ما حولك!.. بل يا حبيسة جسدك، هل فكرتِ يومًا بالانعتاق مما أنت فيه؟.. هل فكرتِ يومًا بالبحر الواسع؟.. هل فكرتِ كيف تمارس أخواتك حريتهن به؟.. إنه واسع واسع جدًا.. الحرية في البحر.. هناك تسبحين بحرية، وتتحركين كما

تشـائين، وترقصـين على نغمات الأمواج، وترقدين بين شُـعَب المرجـان، وتحلمـين، وتتحقق أحلامك، هنـاك في البحر حيث تورق أعواد الحرية وتزهر، تكونين اسـمًا على مسمى.. تكونين بالفعل (الحرة)!..

أورى زنـاد فكـره، تطايـر شرر الأفـكار، فأضرمت نار المعرفة، صهـرت الأفكار، نفت خَبَثَها كما ينفي الحديد خبثه، هِزَّة داخل نفسـه أحدثت زلزالًا عظيمًا قوَّض صروحًا كانت عامرة، وأبرز جبالًا شـمًا شـوامخ كانت خافيـة، رأى الحقيقة جليـة واضحـة بعين قلبه، صاح صيحة مدويـة جابت أرجاء نفسه فتردد صداها داخل منعطفاتها وعميق أغوارها:

- البِرْكـة.. البحـر.. الحرية.. أين هـي الحرية؟.. ما هي البركـة؟.. مـا هو البحـر؟.. آه!.. البركة سـجن ضيق مقيت يضيـق عـلى الجسـم وعـلى الـروح.. أمـا ذاك البحـر الـذي يصفونه بالواسع، والذي كنت أراه منذ قليل بأنه مرتع الحرية ومضارب خيامها، فما هو إلا سـجن واسـع كبير، لا خلاص منـه ولا فـكاك، آه أيتها السـمكة لقد منيتك بالبحر الواسـع منيتك بالحرية لا تؤاخذيني لأن هذه الأمنية سـتبقى أمنية من

لصعب تحقيقها.. فاسبحي أنى شئت فإنك لن تكوني إلا في هذا السجن الكبير وليس لك منه خلاص..

ربت النادل على كتف عبد الله قائلًا:

- ما بك يا سيدي شارد الفكر، ألم تر سمكًا يسبح في الماء قبل الآن؟..

انتشل عبد الله نفسه من بحر الأفكار وثاب إلى شاطئ البركة، حيث النادل ما زال واقفًا بجانبه وهو يحملق به بعينين بلهاوين:

- آه!.. عفوًا!.. آه!.. رأيت سمكًا من قبل، رأيت..

- أي سمكة تريد؟..

ودون أن يجهد نفسه بأدنى تفكير، أجاب لاشعوريًا:

- آه!.. الحرة..

- كلهن أحرار يا سيدي.. فاختر إحداهن..

غاص ثانية في أغوار نفسه، يجمع لآلئ المعرفة، تاركًا المحارات الفارغة تتقاذفها الأمواج لتلقي بها إلى شاطئ النسيان..

- مـاذا يقـول اختر إحداهـن؟.. أنا أختـار!.. أنا أحكم بالمـوت على إحداهن!.. هذه البركة هـي عالمها أم لعله عالمي أنا؟!..، أأنتشلها من عالمها هذا وأدفع بها إلى الموت؟!.. دور مَنْ فيهن الآن؟.. مَنِ التي ستغادر هذا العالم إلى عالم آخر؟!.. مَـنِ التي كتـب عليها الرحيل من غير أي مشـيئة منها؟.. مَنِ التي سـيتوقف الزمـن في عمرها ولـن يزيد ثانيـة واحدة؟.. آه!.. هـل أنـا سـمكة؟.. لعلـه دوري!.. أم دورهـا؟.. هـل سـيبكيها أخواتها؟.. هل سيفتقدنها؟.. هل سيحزن لرحيلها أم سينسـينها بعـد لحظـات ويعـدن إلى حياتهـن الطبيعية؟.. ناسيات أو متناسيات أن هناك شبكة ستصيدهن الواحدة تلو الأخرى، فمن عليها الدور غدًا وبعد غد وبعد.. وبعد.. هل ستفرغ البركة من السمك ولن يبقى فيها سمكة واحدة؟..

صاح بأعلى صوته:

- أيهـا النـادل أيـن الأحـرار اللائـي زعمـت؟.. الكل سيغادر هذه البركة رغمًا عن أنفه!.. أيها النادل ألستَ سمكة أنت الآخر؟.. متى ستغادر؟.. متى ستنتشلك الشبكة؟..

قهقـه النادل بضحكة عمت أرجاء المكان وهو ينظر إلى عبد الله باستغراب ويقول له:

- أأنا سـمكة؟!.. أهكذا تراني؟!.. إنك مخطئ يا سيدي فأنا الصياد وها هي الشبكة بيدي!..

- هكذا يتراءى لك ولن تتعدى كونك سمكة وستكون يومًا داخل هذه الشبكة!..

راح النادل يكلم نفسه:

- لابد أن هذا الشـاب معتوه.. ولا يعرف ماذا يتكلم..، فلا طائل من النقاش معه!..

أشـاح بوجهـه عنـه.. وألقى شـبكته في البركـة ورفعها مسرعًا لتحمل سـمكة وقع عليها الـدور في المغادرة، راحت السـمكة ترقـص وتتلوى بعنـف على أنغام سـيمفونية الموت التـي كانت تعزف لحن الجبروت.. نظر النادل بلا اكتراث إلى عبد الله وقال له:

- هل تريد أن أرسلها إلى المشواة أم إلى المقلاة؟..



دون أدنـى تفكير، انطلقت كلماته مـن عقالها، كما تنطلق السهام من قِسِيِّها:

- أرسلها.. أرسلها إلى الجنة.. إلى الجنة.. هيا!.. هيا!..

وانطلق يعدو خارجًا من المطعم، والعيون ترقبه مستغربة تصرفاته وهو يصيح:

- أنا سـمكة!.. أنا سـمكة سـجينة!.. أنا لسـت سمكة حرة.. الشبكة.. الشبكة..

غـاب عن الأنظار وأصـوات عائلته تنـادي: عبد الله!.. عبد الله!..



١٤- شهر عسل

القطارا..

قطار الزمن يطوي مسـافات عمري، ينهب أرض أيامي، ويلقيها في غياهب النسـيان، يحرق أحلامي، يحرق طموحاتي، ينفثها في فضاء العدم، فتصبح نسـيًا منسيًا.. هذا القطار عجلة دائبة الحركة إلى الأمام، تطحن كل من يقف في طريقها، تدوسه بـلا أدنـى رحمة أو شـفقة.. عجلـة جبارة مخيفـة تتدخل في كل شيء في هذه الطبيعة، تتدخل حتى في أجسـامنا.. في وجوهنا، فتضعفنـا بعد قوة، وتدخل التجاعيـد في وجوهنا بعد نضارة، تأخذ منا كل شيء بعد أن أعطينا كل شيء.. يالها من عجلة!..

هاأنذا قد وصلت إلى الأربعين من عمري، وقطار الزمن قـد التهم ويلتهـم أيامي يومًا بعد يوم.. وشـهرًا بعد شـهر.. يلتهم فرحي ويجتر آلامي..

آه.. أنـا من أنا؟.. لقد كتب في بطاقتي الشـخصية بضعة أحرف تدل على اسـمي (سـهى) من هذه الـ (سهى)؟.. هل أعرف من أنا؟..



أأنا أيام ضائعة؟.. أيام قد داسها القطار.. تجاوزها.. قتلها.. أحرقها.. لم يُبْقِ منها إلا أيامًا جليدية تعج بالصقيع!.. هل ذبل الورد وآن الأوان لتتساقط أوراقه؟.. هل جمّد الصقيع ماء الحياة في الأنسجة؟.. هل أنا في سن الكهولة؟.. هل وصلتُ إلى سن اليأس؟.. أم سن الأسى؟.. هل وهل.. وهل؟..

أين سهى الصغيرة الدلوعة التي كانت تحظى باهتمام العائلة بأسرها والتي كان يدللها الجميع؟.. فهي البنت الصغرى التي تملأ البيت بالحياة والحركة والنشاط.. كيف لا.. وأنا آخر العنقود كما يقولون؟..

اهتم بي الجميع وأشبعوني حبًا، ومهما كبرتُ فإنني لا أزال في نظرهم البنت الصغرى التي تحتاج إلى الدلال والاهتمام..

أنا في الأربعين.. أجل في الأربعين من العمر، وحتى الآن لم أسمع زغاريد زفافي، ولم أسمع ضرب الدفوف، تزفني إلى رجل أحلامي..

رجل؟!.. من هو هذا الرجل؟.. أتوق إليه ليضمني إلى صدره بسواعده القوية، يعتصر آلامي، يروي ظمأ تلك

السـنوات العجاف من عمري، ينسـج لي عشًـا داخـل قلبه، فأبني له سكنًا داخل قلبي..

آه أيـن ذلك الرجل؟.. انتظرته طويلًا!.. إنه الحلم الذي أعيشه، بل هو حلم كل فتاة.. هكذا خلقنا، كقطبي مغناطيس كل قطب يجذب الآخر بشدة ويتوق إليه..

قُـرِع عـلى بـاب الزوجيـة.. جـاء أخـيرًا رجـلٌ.. الحلم سـيتحقق، سألبس الثوب الأبيض.. القلب نبت له جناحان، طـار ورفرف عاليًا، تراقص فرِحًا نشـوانَ، دقاته أصبحت له نغمات جديدة تضاهي سمفونيات العالم بأجمعها..

شـاب في الخامسـة والثلاثين من العمر، أشـقر الشـعر، ذو قسـمات ناعمة هادئة، يبـدو متجلببًا بنوع مـن الرزانة، له نظرات حادة، تغوص إلى ما تحت الثياب والجلد معًا..

هـل أفتح لـه بـاب قلبي؟.. إنـه الطـارق الوحيـد.. إنه رجـل.. لابد مـن فتح الباب لهذا الطـارق وبسرعة لئلا يعود قافلًا، فلا يطرق الباب ثانية..

أسكنته قلبي مباشرة، جمعت سني عمري كلها بين يديه، وأزحت ستار حياتي، فكشفت له عن معاناتي وحرماني وشقائي.. ناجيته في سري وعلانيتي، وبثثته لواعج قلبي..

راح يروي ظمئي بكلمات رقيقة ناعمة.. راحت ترسم في قلبي تغريد بلبل عاشق.. فبدا لي وجه الحياة المشرق الباسم..

دقت طبول الفرح.. راحت الدفوف تشنف الآذان.. وهاأنذا قد ارتديت الثوب الأبيض، ونظرات الأهل والأقارب تكلله وتكللني بالمحبة والفرح والمباركة..

عيون من حولي ملأى بالفرح وقلبي يزغرد كعصفور صغير لم ينبت ريشه بعد..

إحساس لم أشهده من قبل، إحساس لذيذ بكل ما في هذه الكلمة من معنى، الكل فرح الكل مبتهج.. وأنا المحتفى بها..

هل هذه الأحاسيس دائمة؟.. أم عرض زائل؟.. ما أجمل الفرح!.. ما أجمل تحقيق الأحلام!.. هل سيتحقق حلمي كما أصبو؟ أم ماذا تخبئ لي الأيام؟.. سأنجب طفلًا

جميلًا، سأضمه إلى صدري، سأرضعه حياتي سأعلِّمه تجاربي، سأعتني به ليصبح أفضل طفل في هذا العالم..

ـ سهى.. سهى.. أين أنت؟.. أين الإفطار؟!..

الصوت عال والنبرة تُشْعِر بالاستعباد والنظرات تثير الاشمئزاز..

ـ سهى.. أين الغداء؟.. أين العشاء؟.. أين ثيابي؟.. أين؟.. أين؟.. أين؟..

ـ كم أنت مهملة وكسولة!.. نفسي مشمئزة منك!.. ماذا أحببت بك؟.. كم أنا مغفل!.. زوجتي السابقة أجمل منك بآلاف المرات، هاتِ!.. أعطني مالًا أريد أن أشتري بعض الأشياء هاتِ..هاتِ!..

ـ هل هذه الحياة هي الزوجية التي كنت أحلم بها؟!.. هل هذا هو فارس أحلامي؟!.. هل تبخرت الكلمات الجميلة المنمقة المعسولة، التي كانت تتسلل إلى داخلي فتجعلني أسعد مخلوقة في هذا العالم؟..

أنـا بحاجة إلى الكلـمات الطيبة.. إلى الكلـمات الرقيقة.. إلى دفء صـدر أريـح رأسي عليـه مـن همـوم سـنواتي المثقلة بالحرمان..

تُقْـتُ وأتـوق إلى الحنـان والأمـان.. أحـب أن أعيـش كإنسانة، وأحترم كإنسانة لها شخصيتها وكيانها.. إنه يعاملني كـشيء مكروه ممجـوج، وأنـا في أول أيامـي الزوجية.. كيف سيعاملني إذن بعد مضي عشرين أو ثلاثين عامًا؟.. ماذا أعني أنا بالنسـبة له؟.. أرى أنني لا أعني له شـيئًا البتة!.. يُشـعرني بأننـي أتفه من أن يلتفـت إلي.. أنا لاشيء.. أنا لاشيء.. وهل أنا فعلًا لاشيء..

آه.. أرفض هذه العنجهية، وهذا التكبر، وهذا الاستبداد، وهذه النظرة..

سمعت عن الحب، قرأت عنه كثيرًا.. سمعت عن حسن المعشر، سمعت عن الرجل، تعاملت معه كأب، وأخ، تعاملت معه كزميل في العمل.. أما هو فلم أجده ينتمي إلى فئة الرجال هذه أبدًا!.. إنه متبلِّد الأحاسيس والمشاعر، صاحب كلمات بذيئـة، تليق بشـخصه المخـادع، إنه ممثل بـارع، أتقن دوره في



يـام الخطبـة، والآن آن له أن ينْزل عن خشـبة المسـرح.. لقد انتهـت المسرحية.. لقد دام عرضها شـهرًا، أجل شـهر واحد فقط..

ـ طلقني!.. طلقني!.. لا أستطيع التحمل!.. لا أستطيع الاستمرار.. طلقني!..



١٥- غليظ.. أم..؟!

دخل غرفة الانتظار لعيادة طبيب (أنف أذن حنجرة) رجل في العقد الخامس من عمره مع مرافق له، أنيق المظهر، مرسوم الهيئة رسمًا، مزهوًا كطاووس يرى ريشه لأول مرة.. الرأس مرفوع، والأنف شامخ معقوف كأنه منقار عقاب.. لم ير أحدًا من المنتظرين في الغرفة رغم اكتظاظها بعدد لا بأس به من المرضى.. أشار للسكرتيرة بيد ممدودة، وأصبع كأنها في وضع التشهد تشير إلى جهة باب الدكتور..:

ـ أخبري الدكتور أن مدير الـ.. موجود في الخارج، وأنني في عجلة من أمري.. هيا بسرعة!..

رمقته السكرتيرة بعين ملؤها الاستهجان والحيرة، وتابعت حديثها مع امرأة معها طفلان جالسة تجاهها..:

ـ بيني وبينك، أنا ذهبت إلى ذلك المحل الذي تتكلمين عنه وأنه عامل رخصة، لكن كل المعروض موديله بطلان وكلها بضاعة قديمة..

ـ يعني بتنصحيني لا روح ولا عذب حالي؟..

ـ يوجد أفضل منه بألف مرة..

ـ أين؟..

الرجل يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، نظر إلى ساعته أكثر من خمس مرات خلال دقيقة واحدة.. كعب حذائه ينقر الأرض نقرًا ويصدر صوتًا كأنه صوت منقار نقار الخشب..

الرجل موجهًا كلامه للسكرتيرة مرة أخرى:

ـ أدخلي.. لماذا لاتدخلين وتخبريه بقدومي!..

- لا تستطيع الدخول ياسيدي حتى يخرج المريض الموجود بالداخل..

ـ ولكني على عجلة من أمري، ولا أستطيع الانتظار!..

نظرت إليه السكرتيرة نظرة حائرة ولاذت بالصمت.. حذاؤه ما زال يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، والأنف شامخ وكأنه شم لتوه رائحة قذرة.. أما العينان فتتحركان بين فضاء الغرفة وساعة اليد، وكأنهما نواسان لساعة قديمة.. المرافق الواقف بجانب الباب الذي دخلا منه كأنه قد تعب من حركة مديره فبادره قائلًا:

ـ استرح يا سيدي ريثما يخرج المريض..



نظر المدير إليه نظرة من لم يسمع شيئًا، ثم عاد لينظر في ساعته..

الصغيران ملا الانتظار فراح أحدهما يعبث بالمجلات القديمة المرمية على الطاولة بفوضى ظاهرة.. أما الآخر فكان يتململ في حضن أمه ووجهه يوحي بأنه على وشك البكاء..

فتح باب الغرفة وخرج المريض من داخلها، انطلق المدير يريد الدخول، فصاح الصغير:

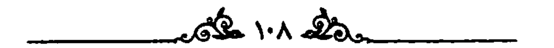
ـ ماما!.. ماما!.. دورنا الآن..

ـ لا يا ماما دور عمو الآن..

ـ لا يا ماما.. نحن جئنا قبله!.. لماذا يدخل قبلنا؟..

رمقه المدير شزرًا ودخل غرفة الطبيب، فأسرع المرافق وأغلق الباب خلفه، ووقف أمام الباب كأنه خشب مسندة..

تبادل الموجودون في غرفة الانتظار النظرات فيما بينهم باستغراب، تنهد أحدهم ونفخ نفخة أصدرت صوتًا يشبه صوت بالون منفوخ أفلت من يد صبي، وهز آخر رأسه بأسىً من غير أن ينبس ببنت شفة.. قطع الصمت السائد بكاء الطفل الذي مل الانتظار ومل جلوسه في حضن أمه..



أراد أن يتحـرر مـن هذه الجلسـة المملـة الطويلـة، ولكن أمه كانت تمنعه، فما كان منه إلا أن عبّر عن استيائه بالبكاء..

العيـون ترقـب باب غرفـة الطبيب متى سـتفتح، وتنظر إلى ذاك الواقـف عـلى بابهـا وكأنـه السـياف عنـد أبي جعفـر المنصور..

أخـيرًا.. فتح الباب وخرج الرجل بأنفٍ شـامخ مرفوعٍ، بعد أن قام الطبيب بإصلاح خلل ما معين داخل هذا الأنف، وحذاءٍ ينقر الأرض نقرًا..

نظر الطفل إليه وقال بصوت خفيض:

- غليظ!.. غليظ!..

خرج الرجل من باب العيادة وهو يقول لمرافقه:

- اتصـل بـأبي ثائر وقل لـه أن يوافينـي إلى مقهى الوردة البيضـاء، فإنني أتوق إلى لعب الورق معه لكي أملأ الفراغ في هذا اليوم..

همت المـرأة وطفلاهـا بالدخول، حينذاك سـمع الجميع صوت دحرجة على الدرج وصرخة ألم مدوية.. بعد ثوان عاد



الرجـل ودخل العيادة بأنف مكسـور مدمى من أثر السـقطة وإحدى فردتي حذائه مكسورة الكعب.. وانطلق باتجاه غرفة الطبيب فصدم الطفل الذي كان يهم بالدخول، فصاح الطفل بأعلى صوته:

- غليظ!.. غليظ!..



١٦- في المنْزِل الأول

أبـو محمد الحلاق مات وشـبع موتًا، وكما يقـول العوام: (عظامه أصبحت مكاحل) بل لعله أصبح رميمًا، وهو يسكن الآن في المنْـزِل الأول مـن منازل الآخـرة في قبر مهمل ضمن مقـبرة روادها قليلون لكـن قبورها تشـترى بثمن غال تجعل الإنسـان الفقـير يفكر ألف مرة بثمن القبر قبـل أن يعد العدة للرحيل إلى الآخرة.

أبـو محمـد هـذا كان حلاقًـا في حـارة دمشـقية قديمـة، ومحبوبًا مـن أهل حيه، خفيف الظل، صاحـب نكتة ودعابة، له قلب أبيض كبياض الياسمين الدمشقي، داخله يتربع طفل كبـير لم تكتمل سـلامة نطق الحروف عنده بعـد. نفحه الدهر بالعديد من الزيجات، لعلها أربع زيجات أو خمس زيجات، هو كان يقـول: أربع فقط لأن الخامسـة لا تحتسـب لأنه لم يتم بها دخول.

البعـض كان ينعته بضعف الشـخصية، وأن الزوجة هي التي تسـيطر عليه وتقوده، وآخـرون قالوا لا إن قلبه الأبيض



هو الـذي أورده مـوارد الزواج تلك، وأوقعه فريسـة سـهلة تتناوشـه الزوجات، والبعض كان يحسده ويمصمص شفتيه متلمظًا باشتهاء قائلًا:

- الله مـا أجمل التغيير.. حياتـه مثل ماء النهر تتجدد دائمًا وعلى كل ضرس لون يا سيدي..، لا حسد ولا ضيق عين بل من الاثنين..

رزقـه الله العديـد من الذكـور والإناث، لكنـه لم يكن في حقيقة الأمر مرتاحًا في حياته، ولا حتى مع أولاده. كان يعطي ويعطـي دون انتظار لجزاء أو كلمة شـكر، لكنـه كثيرًا ما كان يُقابل بالجحود والنكران، ومع ذلك كان بقلبه الكبير يسـامح الجميـع ولا يحمل في صدره أي حقـد أو ضغينة، وسرعان ما كان ينسـى الإسـاءة ويتجاوزها، حتى إنه كان يقول لكل من نسائه عندما يطلقهن الواحدة تلو الأخرى:

- هذا حقكِ ومستحقك ونفقة طلاقك.

لم يكـن ليبخـس أيًا منهـن حقها، بـل كان يعطيهـا أكثر مـن حقهـا. أما أكـبر أولاده، فقـد كان مثالًا لا يشـق له غبار

ي العقـوق، بل لعل النمرود قـد تتلمذ على يديه وأُشرب من أفكاره، كان أبو محمد يعطي ويعطي دون حسـاب فيقابل من ابنـه بالجحـود والنكران، فكلـما أعطى الأب أكثـر كلما ازداد الابن رفسًـا وركلًا كالبغل الشَّـموس، كان أبو محمد كثيرًا م يحدث نفسه قائلًا:

- الله يصلحـه ويهديـه.. إنه مـا زال صغيرًا، غـدًا عندما سـيكبر ويأتيه الأولاد سـيعرف قيمة الأب، وكم يحب الأب أولاده ويخـاف عليهـم ويتمنى أن يكونوا مـن أفاضل الناس وخيارهـم. آه.. ماذا أقـول؟ في الحقيقة إنه لم يعد صغيرًا، لقد جـاوز الرابعة و العشرين مـن عمره، وأنا عندما كنت في مثل سـنه كنت أعتبر نفسي رجلًا كامـل الرجولة أعرف ما لي وما علي وأعامل الجميع معاملة حسنة فضلًا عن والدَيّ وأقاربي، فما باله يعاملني هذه المعاملة؟.. بل لعله يعامل الغرباء معاملة أفضـل مـن معاملته لي.. لعلي لم أحسـن تربيتـه!!!.. مع أنني عملـت ما في وسـعي، أم لعل طـلاق أمه وانفصـالي عنها قد أثر في نفسـه؟.. لست محللًا نفسـيًا لأجزم، وكل ما أعرفه أن الولـد لا يطيق النظر إلى وجهي وكأني عدو لدود له، ونظراته

تجاهـي تذكـرني بنظـرات ديك ألقـي تجاه ديك آخـر في حلبة صراع للديكة..

سـيارة طويلة سـوداء اللـون، أعدت لدفـن الموتى،ثُبت عليها مكـبرات للصوت ينبعث منها صـوت حاد ينعي أحد أفراد القطيع الإنساني:

- ترحمـوا عـلى المرحـوم محمـد بـن أبي محمـد الحـلاق، سـامحوه يـا أهل الديرة، سـامحوه يـا أهل المحلة، ليسـمح عنا وعنكم الله.

تمشي السـيارة بتؤدة في موكب مهيب، وأصوات الأقدام خلفها، كأنها أصوات حوافر قطيع من الغنم سـائر إلى حتفه، الـكل حانٍ للرأس مرتـدٍ قناعًا على الوجـه يوحي بأنه حزين وأنـه قـد اتعـظ مـن المـوت، وأنـه عندما سـيعود مـن الدفن سـيكون كالملائكة لا يجني ولا يعتدي على أحد، ولا يغتصب حق أحد، بل سـيعيد الحقوق لأصحابها، لن يغش ولن يخدع بعـد الآن، فالدنيا فانية والقبر شيء مخيف ومرعب، لكن هذه الأفـكار على الأغلب سرعـان ما تزول كفقاعـة صابون عند الابتعـاد قليلًا عن موقع الحدث. وهناك آخرون كان الواحد

نهم على العكس يفكر بأنه شخصيًا بمنأى عن الموت وبعيد عنه كل البعد، وأن المرحوم قد مات لأن به علة ومرضًا ، وأما هو فإنه سليم معافى قوي الجسم والبنيان، فلا داعٍ لأن يغازله الموت أو يضمه.

بين الحين والحين يصيح أحد أفراد القطيع السائر خلف الجنازة:

- وحدوا الله!..

يردد القطيع بصوت يوحي للسامع بأن هذا الصوت تتقاطر منه دموع حرّى، بعد أن طلي بمسحة من الأسى والشجن والخشوع والخنوع والخضوع تفتّت نياط القلب:

- لا إله إلا الله!..

وتهتز الرؤوس موحية بالإيمان بالله، وتحملق العيون في اللاشيء والنظرات توهم بأنها تسبح في بحر من التفكر.

يقترب الموكب من خط النهاية، أصوات التكبير والتهليل تخترق قبر أبي محمد الحلاق تنتفض روحه ينادي على جاره أبي كامل:

- أبا كامل! هل تسمع؟ هناك زائر جديد قادم إلينا!..

- أجل الجميع سيأتون إلى هنا شاؤوا أم أبوا..

- لكن المكان ضيق ولا يتسع لهذا العدد الضخم من الخلائق فلدينا أزمة سكن هنا!..

- سيتسع يا صاحبي، لأن أضخم واحد من هذه الخلائق لا يتعدى حجمه بضع حفنات من تراب..

- إذا كنت أستاذ فلسفة في الدنيا فهل ستمارس فلسفتك علي الآن ونحن في الآخرة؟..

- لا يا صاحبي لا أمارس فلسفة خاصة وإنما هي حقيقة ثابتة، الجميع حفنات من تراب، هذا لا جدل فيه، أنت.. ألست في النهاية حفنة من تراب؟..

- أجل!..

- ربما تذروك الرياح يومًا وتتناثر ذراتك في أماكن عديدة.. فتكون لَبِنَة في جدار، أو حبة شعير يأكلها حمار، أو كأسًا في يد غانية تحطمه متى تريد، أو قلمًا بيد فيلسوف، أو قد تكون نجفة معلقة في سقف عال ترنو إليها الأبصار، أو تكون أي شيء آخر أخجل أن أقوله..



عادت روح النكتة والدعابة إلى أبي محمد التي كان يتميز بها في حياته الدنيا فبادره قائلًا:

- ربما تأكل دودة بعض ذراتي فأكون بعرًا، فيسمدوا بي شجرة، فيأكل من ثمرها ملك أو بقرة فأعود (خـ..) أو روثًا.. ولا فرق على ما أظن إن كنت (خـ..) ملك أو روث بقرة، وربما جُفف هذا الروث وأصبح وقودًا فأَحترِق في الدنيا قبل الآخرة، اللهم نجنا من نار جهنم!..

ضحك الاثنان ضحكة برزخية.. الصوت القادم من مكبرات الصوت يصلهما بوضوح:

- ترحموا على المرحوم محمد بن أبي محمد الحلاق!..

- هل سمعت يا أبا كامل؟ هذا المتوفى هو ابني محمد، هل سمعت؟..

- أجل، هذا ابنك البكر، أليس كذلك؟..

- أجل.. أجل.. إنه هو!..

وقع أقدام القطيع فوق القبر مباشرة، بلاطة القبر تفتح يتسرب الضوء داخل القبر يصيح أبو محمد:

- النباشون ينبشون قبري، نُبشت قبورهم!.. ألم يجدوا في أرض الله الواسعة مكانًا غير هذا المكان ليدفنوا به ميتهم؟!..

أبو كامل مستغربًا:

- ولكنه ابنك يا صاحبي!..

- ابني!.. في الحياة الدنيا كان لا يحب أن يراني، واليوم تريدني أن أحمل جثته فوق رفاتي إلى يوم القيامة؟..

أحد أفراد القطيع نزل إلى القبر، وأخذ يجمع عظام أبي محمد في ركن من أركان القبر.. صاح أبو محمد صياحًا جنونيًا برزخيًا لم يسمعه إلا أصحاب القبور:

- إيه.. إيه.. يا دابة!.. انتبه لقد خلطت أجزائي بعضها ببعض.. اترك جمجمتي، أتحسبها كرة يد؟.. أم بطيخة؟.. إيه.. يا حيوان!.. انتبه لقد دست بحذائك على عظام صدري، لقد حمل حذاؤك رميم عظامي.. إلى أين تأخذ رميمي؟.. آه يا رميمي!..

دقائق وأصبح محمد مسجًى بجانب رفات والده وأعيد إغلاق البلاطة، وراح القطيع يستمع إلى التلقين، ويقرأ سورة

س.. بعدها سمعت أصوات الأقدام وهي مدبرة وكأنها أصوات حوافر حُمُر مستنفِرَة، فرت من قَسْوَرة..

قال أبو محمد مرحبًا بابنه:

- أهلًا بك يا محمد في المنْزِل الأول...

- كيف عرفتَ اسمي؟.. من أنت؟

- أولًا هناك أجزاء من رفاتي تحت جثمانك الثقيل الشبيه بجذع شجرة مقطوع، فهلا تنحيت جانبًا لئلا تزعجني!..

- كيف لي أن أتحرك؟.. كأن ماهية الحركة قد سحبت مني!.. فأنا كما تقول كجذع شجرة ملقى على التراب، لكنك لم تقل لي من أنت..

- أنا أبوك!..

- أبي!!..

قالها باستغراب وحاول أن ينظر لأبيه نظرة ديك في حلبة صراع للديكة كما كان يفعل في حياته الدنيا، لكنه لم يستطع أن ينظر إليه ولو نظرة صوص ابن يومين. عند ذلك لاحظ ضعفه فآثر الصمت..

- أتذكـر يا محمد كيـف مت أنا؟.. أنا متأكد بأنك تعرف وتتذكـر جيدًا بأنني قد مت باحتشـاء في عضلة القلب، وهذه الذبحة حلت بي من جراء أفعالك!..

- أفعـالي أنا!.. المـوت نهاية كل الخلائق وهو الذي لا بد منه..

- أجل.. أعرف.. ولكنني كنت أحسن إليك كثيرًا ولقد سـاعدتك كثيرًا كي تشـق طريقك في الحياة وتبني مستقبلك ولكنـك كنـت تهـدر كل شيء وتبـدده، و أصعـب المواقـف عندي كانت يوم طلبت مني بأن أسـتدين لك مبلغًا كبيرًا من المال من أجل إنشاء مشروع في الخارج ووعدتني يومها بأنك سـتكون رجلًا وسـتعيد المبلغ إلى أصحابـه في غضون عام.. واتصلـت بك العديد من المرات من أجل التسـديد وكنت في البداية تستمهلني وعندما ازداد إلحاحي عليك، قلت لي ببرود مميت: سـدِّد عني.. أنا لا أريد أن أسدِّد.. وأنا حفاظًا على ماء وجهـي أمام من وثقوا بي بعت كل ما أملك وسـدَّدت الدين عوضًا عنك، فاسـودت الحياة في عينـي وركبني الهم وهذا ما أدى لإصابتي بالجلطة.

- أنا قصدت ألا أسدد الدين نكاية بك!..

- لماذا؟..

- لأنك طلقت أمي!..

- وهل أنا كنت مبسوطًا لطلاق أمك، لقد طلقتها رغمًا عني بعد أن استحالت الحياة بيننا، وأصبحت جحيمًا لا يطاق...

- لكنك كنت ظالمًا بطلاقك إياها!..

- أنا كنت ظالمًا؟!.. فلتأكلك دودة، وتطرحك بعرًا فيسمِّدوا بك شجرة فتأكل منها بقرة و..

ضحكة برزخية انطلقت من أبي كامل عمت أرجاء البرزخ وأردف قائلًا:

- لقد استفدتَ من فلسفتي يا أبا محمد، والآن كفاكم عتابًا، فلقد حان وقت مجيء الملكين المكلفين بمحاسبة محمد..

لأول مرة ينظر محمد إلى والده بانكسار كمن يريد أن يبوح له بسر، فيبادره أبوه متسائلًا:

- ما بك؟..

- أريد أن أعترف لك بحقيقة..



- ما هي؟..

- الحقيقـة أن أولادي قـد عاملـوني بنفـس المعاملة التي عاملتك بها وأنا الآن نادم أشد الندم، فلتسامحني يا أبي!..

أبو كامل كمن يعلن ساعة الصفر:

- لقد جاء الملكان..

أبو محمد يرثي لحال ولده ويشفق عليه من الحساب:

- آه يا ولدي!.. كم يشـق علي أن أحضر حسابك، فأنت فلذة كبدي الذي كان، فلتذروني الرياح بعيدًا عن هذا المكان، ولأكن ما أكون ولا أسمعك تتألم..

في ذلـك اليوم هبت نسـمات لطيفة على سـطح الأرض، وبقي أبو محمد بجانب ابنه، وعلى الأغلب أنه قد حضر جلسة الحساب بكاملها لأنه لم يبرح مكانه وهو يسترحم الملكين بألا يعذبا ولده..



١٧- قــارون

حمـل قـارون كل أمواله السـائلة، وجميع دفاتر شـيكاته، ونزل بها إلى السوق باحثًا، منقبًا، مفتشًا، محاولًا شراء ضحكة صافية نابعة من القلب، لكنه لم يسـتطع شراء هذه الضحكة، لأنــه وجدها غالية الثمن، بل وجد أن جميع ممتلكاته لا تكفي لشرائها، ولا حتى لشراء بسمة صغيرة!..

قفل راجعًا.. كئيبًا.. ينوء تحت ثقل ما يحمل!..



١٨- مدينة السلام

في زمن من الأزمـان، بالضبط في الألفية الثالثة للميلاد، كان هنـاك اجتماع للجنـة من أجل بلد تدعى مدينة السـلام، هـذه المدينة التي لم تنل من السـلام إلا اسـمه، لقدر ما عانت منـذ غابـر الأزمـان من الويـلات والحـروب، فكم مـن مرة خبّـت أرجـل الخيل بدمـاء الآلاف من أبنائهـا، وكم من مرة احتلـت، وكـم من مرة تحـررت، وفي نهايـات الألفيـة الثانية اجتاحهـا اليهـود، وعربد جنودهـم بأحذيتهم الدنسـة فوق ثرى مقدسـاتها، مع أنها تعتبر مدينة مقدسة بالنسبة للديانات السماوية الثلاث.

يـوم اجتمعـت اللجنـة المؤلفـة مـن العـرب أصحـاب الأرض والمسلمين وبعض المسـيحيين، توافد الجميع إلى مقر اللجنـة، وربطوا ركوباتهـم بجانب باب قاعـة الاجتماع، من سيارات فخمة مصفحة ضد الرصاص وخيل وهجن سريعة وحمير معدلة وراثيًا لتواكب ذلك العصر.. الحماسـة بادية على وجوه أعضاء اللجنة وهم يفكرون بشـكل جدي للوقوف في

وجـه عملية تهويد مدينة السـلام هذه.. رئيـس اللجنة مقطبًا مـا بين حاجبيه، ليشـعر الجميع بخطورة الوضع، حاول شـد سرواله من على خصره باتجاه الأعلى، وحرك بيده عقدة ربطة عنقه باتجاه اليمين واليسـار، وكأنه يقوم بعملية تحميه لصوته وجسمه، بعد ذلك سالت الكلمات من فيه:

- إخوتي الأحبة بدايةً أرحب بكم وأشكر لكم حضوركم واهتمامكـم.. فالوضـع جِدُّ خطيرٍ.. وتجب معالجته بالشـكل السـليم قبل فوات الأوان، إنهم يهدمون البيوت ويمسحونها عن وجه الأرض مسـحًا، ويهجِّرون أهلها وإن أبوا قتلوهم، أشجار الزيتون تناديكم تستصرخكم.. إنهم يقتلعونها ويبنون المستوطنات عوضًا عنها!.. وأنا بصفتي رئيسًا لهذه اللجنة فقد أعددت من جهتي الدواء الناجع لمعالجة عملية التهويد هذه، فإننـي وبكل تواضع قد أعددت خطبة عصماء سـوف تزلزل الأرض مـن تحـت أقدامهـم، و تسـقط قلوبهـم في أرجلهم، سـألقيها في الوقت المناسـب، والآن أحبتي الأعزاء ستتداول معًـا آراءكم ومقترحاتكـم، لنخلص معًـا إلى أفضل الحلول، فليتفضـل كل واحـد منكـم ويـدلي بدلـوه، فليتفضـل الدلو

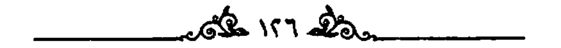


الأول!.. عفوًا!.. فليتفضل العضو الأول، ساد الهرج والمرج وامتلأت القاعة بالصخب والضجيج، فكل عضو بينهم كان هو الأول حسب رأيه، وله حق الكلام قبل غيره، اختلط الحابل بالنابل ولاحت بوادر شد الشعر وتهيئة القبضات للكمات والأسنان للعض والأظافر للهبش والنبش، ولكن الله لطف لأنهم اتفقوا أخيرًا على أن يبدأ أصغرهم سنًا وبعده الأكبر فالأكبر:

ـ أنا رأيي لوقف التهويد، أن نطرد اليهود، أن نقاتلهم فالمدينة مدينتنا والأرض أرضنا ولن نتنازل عن شبر منها وهم غرباء محتلون أتوا إلينا من شتى أصقاع العالم، فليرجعوا إلى حيث كانوا!..

ـ ما هذا الكلام؟.. هل تريد أن يقف الرأي العام ضدنا؟.. أين هي السياسة، أين هي الدبلوماسية؟!.. هل تريد أن يقولوا إننا إرهابيون، ومعادون للسامية، ما هذا الكلام إنه مرفوض جملة وتفصيلًا!..

ـ لنمسك العصا من منتصفها، فنعطيهم نصف المدينة.. ونأخذ النصف الآخر!..



ـ أمعقـول أن تتنـازل عن نصف بيتك لأحـد؟.. ما هذا الكلام؟!..

ـ أرى أن نتعايـش معهـم، ونعيش سـوية بسـلام في بلد السلام!..

ـ إن أردت أن تتعايـش معهـم عـلى أرضـك، فإنهـم لن يقبلوا التعايش معك، بل هم يريدون أرضك بدونك!..

ـ أرى أن نتحد عربًا ومسـلمين ومسيحيين ونقوم بإنتاج فيلم روائي طويل يعالج هذه المشكلة ويفضح أطماعهم!..

ـ وأنـا بصفتـي مخرجًـا تلفزيونيًا سـأقوم بإخراج سـهرة تلفزيونية تعالج هذا الموضوع بكل صدق وأمانة!..

ـ نرجو أن تكون هناك ترجمة فورية حتى يستطيع الجميع الفهم والمشاركة!..

ـ أنـا برأيـي أن نرفـع هـذا الموضـوع برمتـه لهيئـة الأمم المتحدة، فالمفروض أن يعالج هذا الموضوع عالميًا!..

ـ هِهْ!.. هِهْ!.. هيه!..



أحدهــم فتــح عينيــه بعــد أن أقلقتْه مــن منامــه أصواتُ المُذْلـين بدلائهم، فتثـاءب حتى بدا فمه كمغـارة علي بابا، ثم أدلى بدلوه:

ـ أنـا جئـت إلى هـذا الاجتماع لأشـارك من أجـل وحدة الصـف والكلمـة، ولكـن عـدم المؤاخـذة سـمعت في بداية الجلسة كلمة تهويد فما معنى كلمة تهويد عدم المؤاخذة؟!..

ـ بالدور!.. بالدور!.. يا جماعة كما اتفقنا!..

ـ دوري!.. دوري أنا!.. أنا أرى أن أشـارك وبكل ليونة بوَصْلـة من الرقص الشرقي احتجاجًا عـلى ما يقوم به هؤلاء اليهـود.. وليرى العـالم كله كيف أهز خـصري من أجل هذه القضية!..

ـ إيـهْ!.. وهـزي يا نواعم خـصرك الحرير وخلي الشـعر الناعم مع الهوا يطير!..

ـ وأنـا سـأقيم دوريًـا لكرة القـدم، أسـميه دوريَّ مدينة السلام!..

ـ أما أنا فسأرسم لوحات زيتية تخلد هذه المدينة!..



ـ الأفضل أن يكون الرسم بالفحم فقط ليتماشى مع هذه المناسبة!..

ـ سأحيي ليلة غنائية تمتد حتى الصباح، مع أنني لا أجيد الغناء!..

ـ نعم!.. نعم!.. يجب أن يقف التهويد بأي شكل من الأشكال!..

ـ هذا دليل على أن الأمة قد استفاقت من غفوتها!.. فلتهنأ أشجار الزيتون فقد جاء من ينقذها من الإبادة والفناء!..

ركل قوي على باب قاعة الاجتماع، أفزع الجميع، فتحوا الباب فإذا بالحمار المربوط إلى جانب القاعة بعد أن سمع هكذا حوار، أدار ظهره للباب، وأمطره بوابل من الركلات الاحتجاجية بقائمتيه الخلفيتين.. وهو ينهق نهيقًا من الممكن أنه عني به شيئًا ما...

وهكذا يا سادتي خُتِم الاجتماع في ذلك الزمان بوقته وتاريخه..



١٩- مفارقة

عربة نقل القمامة تمشي الهوينى تجوب شوارع المدينة، تجمع النفايات التي يخلفها هذا الإنسان المتحضر، هذا الإنسان الذي كلما زادت حضارته زادت مخلفاته..

أربعة من عمال التنظيفات يركبون على هذه العربة فوق أكداس القمامة التي تنبعث منها رائحة كريهة نفاذة، تجعل كل من يقترب منها يسد أنفه ويهرب مسرعًا.. أحد هؤلاء الأربعة كان يرفع صوته مغنيًا تاركًا لحنجرته العنان لتصدح بكلمات أغنية تقول:

(الحياة حلوة بس نفهمها.. حلوة.. حلوة.. الحياة حلوة.. حلوة.. حلوة..)

وكان يشدِّد على كلمة (حلوة) حتى إن المستمع ليشعر بأنها نابعة من أعماق قلبه، صاح أحدهم منتشيًا بما يسمع:

- هيه!.. هيه!.. طيِّب!.. أعد!..أعد!..

قهقه الجميع فرحين وعلائم البشر والسعادة تفيض من قلوبهم على وجوههم فتكسبها ألقًا قلما تجده على وجوه

لناس في هذا العصر المعقد.. كانو ا يفترشـون أكداس القمامة وكأنهم يفترشـون مرجًـا أخضرَ جاد به ربيع نـديّ.. كانوا لا يأبهـون لمنظـر القمامة المقزز، ولا يشـمون رائحتهـا المنفرة بل كانـوا يقطفـون مـن اللحظـة بهجتها وسـعادتها، ويعيشـون هذه السـعادة مـلء جلودهم، بل بكل ذرة مـن كيانهم المادي والمعنـوي.. محاولـين الإلقاء بشـوك الحياة بعيـدًا، بل ربما قد اعتادوا على هذا الشوك فصار الشوك يشاك من شوكهم..

شارة المرور يضيء ضوؤها الأحمر تقف العربة والصوت ما زال يلعلـع والضحكات الندية راحت تروي بعبقها غليل الأثـير الجاف الـذي امتلأ صخبًا من أصـوات هدير محركات السيارات، وتلوثًا من عوادمها..

سـيارة فارهـة (موديـل ٢٠٠٧) غاليـة الثمـن كاملـة المواصفـات التـي تؤمن الرفاهيـة لراكبها، الزجـاج العاكس لا يبـين عمـن بداخلها، النوافـذ مغلقة ومكيف الهـواء ينفث هواءه البـارد المنعش، النظارات السـوداء تغطي نصف وجه صاحب السـيارة الذي لم تطاله الشـمس منذ أمد بعيد.. هذه

السيارة قد اضطرت للوقوف بجانب عربة القمامة بفعل الإشارة الضوئية..

صوت نزق داخل السيارة يتكلم على الهاتف الجوال:

- لماذا لم تخرج البضاعة من الجمارك؟!..

-......

- هذا الكلام لايفيدني.. إنني أخسر الملايين كل يوم من تحت رأسك، أكاد أجن.. إنك تدمرني.. أعصابي لم تعد تحتمل، تصرف بسرعة وإلا ستضطرني لاستعمال إجراءات لن ترضيك..

-......

هاتف آخر:

- نعم.. نعم.. لا.. لا.. الواقع أنت محسوب على المهندسين وأنت لاتفقه شيئًا في هندسة الديكور..

-......

- أريد شيئًا مبتكرًا.. جديدًا.. أريد (فيلتي) أن يكون لا مثيل لها في هذا البلد..

-......

- أرجع الفيلاَّ على الهيكل العظمي أزل كافة الإكساءات والديكورات التي قمت بها..

-......

- أجل أعرف أنني سأخسر الملايين، هذا شيء يدعو للجنون، لا أحد يفهمني في هذا العالم، تصرف كما أقول لك.. مع السلامة!..

راح يكلم نفسه وكأنه يكلم أحدًا بجانبه:

- آه!.. ما أصعب هذه الحياة!.. لا يستطيع أحدنا أن ينعم بالهدوء وراحة البال ولو لساعات، الحياة كلها مشاكل ووجع قلب، على ما أظن أن الضغط الشرياني قد ارتفع عندي، فرأسي بدأ يؤلمني ولا أدري إن كان السكَّر هو الآخر قد ارتفع.. إيه!.. الحياة كلها إزعاجات!.. ولا يوجد شيء يفرح القلب..

أضاء الضوء الأخضر.. فانطلقت السيارة الفارهة وكأنها النسمة ومكيف الهواء مازال ينفث الهواء البارد المنعش على وجه السائق المقطب الجبين، تبعتها العربة ببطء وتثاقل ووجوه الأربعة الطافحة بالبشر والسعادة تلفحها أشعة

الشمس الذهبية فتترك عليها أثرًا من ذاك الذهب، والصوت ما زال يردِّد:

(الحياة حلوة بس نفهمها!..)

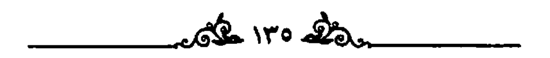


٢٠- هارب من الحب

أيتها العزيزة:

لا أدري مـاذا أكتـب إليك.. هل أقـول بأن حبك ما زال معششًـا في أثناء قلبي؟.. أم أقول بأن البعد قد أنسانيك وبت طيفًـا عـلى هامش الذاكرة، هل أقول لك بـأن حبك يندفع في دمي كموج هادر؟.. أم أقول لك بأن حبنا هذا الذي تتكلمين عنه، هو وهم؟ سراب خادع؟..

لا أدري يـا عزيـزتي مـاذا يتوجـب عـلي أن أكتـب لـك لأخرجك من دائرتي التي دخلتها رغمًا عني.. رغمًا عن أنفي، إذ وجدتك تقتحمين علي حياتي دون سـابق إنذار، وتحقنينني بـدم شـاب، دم حار قد نسيت اندفاعه في عروقـي منذ زمن طويـل، بعد أن غطت الثلوج رأسي، وتسـللت إلى عروقي.. قلـتِ لي إنك تذكرين اللقاء الأول لنـا ضمن تلك المجموعة المتربعـة على مكاتب أنيقة، مـا زلت تذكرين اليـوم والتاريخ والساعة وكأنه حدث تاريخي!..



ومنـذ ذلك التاريخ وتلك السـاعة، تفجر ينبوع دافق في قلبـك، وبـدأ عطاؤك الـذي لا ينضب، فتحـت لي قلبك على مصراعيه، وكلمتني عن نفسـك الـشيء الكثير، لم تخفي عني شـاردة ولا واردة، كنت صريحة للغاية، تعبرين عن مشاعرك ببسـاطة أخذت بمجامع أحاسـيسي، كلماتك البسيطة كانت ترسم فلسفة خاصة، تضفي على الحياة لونًا مميزًا..

يومها شدني إليك شعور جميل، أسميته صداقة، بل قلت لك عنه إنه أعمق من الصداقة، إنه أخوة، ولم ألاحظ تحسسك من هذه الكلمة، إلا بعد فترة من تعارفنا، إذ وجدتك تختلجين مـن تلك الكلمـة وتنفرين منها، أخذني مـد وجزر، تماوجت الأفكار في رأسي، فدفعت إلى لساني ألف سؤال وسؤال..

تجاهلتُ الإجابـة، ورحتُ أعاملك كأخت أصغر مني، وأرسـم لـك درب نـور، متجاهلًا مـا كنتِ تفكريـن به، وما تحملينـه من أحاسـيس، فكنت الشـاطىء الـذي تنتحر عليه وتتلاشـى أمـواج عواطفـك، كنـتِ يومهـا ثائرة علـيّ لأنني أتجاهل ما تحسـين به، ولا أبادلك الإحساس بالإحساس، بل كنتُ أتعمد أن أضع كلمة أختي دائمًا بين كلماتي إليك.. كنت

متعضين، تثورين في داخلك، تحاولين أن تتكلمي، لكنك سرعان ما كنت تبتلعين كلماتك وتلقينها في جوفك كسيرة مهيضة الجناح.. وكنت ألحظ ذلك وأتجاهله، وأقول في نفسي الصداقة والأخوة ممكنة، ومن الممكن ألا نجعلها تأخذ بعدًا أكثر من ذلك.. وتعددت لقاءاتنا فتقاربت أفكارنا، وتماثلت اهتماماتنا، وراحت عيناك تدك جبل الصمود الذي أرعاه وأنميه داخلي، فكان زلزال عنيف، بعثر محتويات نفسي وضيع كلمة أختي أثناء حديثي إليك، فلمعت عيناك ببريق نصر شدني إليك أكثر وأكثر.. يومها تشجعتِ وسألتني:

- ما رأيك بالحب؟ ما تعريفك للحب؟..

أجبتك بكلمات ضبابية لا تروي غليل قلبك الظامىء، المشرئب لسماع سيمفونية عذبة عن الحب.. تجاهلتِ كلماتي ورحت تعزفين بكلماتك لحنًا جميلًا، حمل إلي آراءك في الحب، وكنت جاهدة تحاولين انتقاء أرق الكلمات، وألطف التعابير لتعرِّفي بها الحب، ولتشرحي معنى الحب.. راحت الكلمات تتفتح كبراعم على شفتيك، وترشقني بعبير الحب لأذوب في شذاه.. فقلت وقلت وأنا منصت، أقرأ تعبير وجهك، ألحظ

تـورد وجنتيك، ألحظ تقطـع نبرات صوتك. أسـمع وجيب قلبـك المضطـرب.. يومهـا بالـذات كنـت أحـاول أن أبـدو كتلميذ يتلقى درسًا خاصًا من معلمته.. رحت تستفيضين في الشرح والتعليق، تغرفين مـن بحر الحب درره ولآلئه لتلقيها بين يدي، لتبهري بها ناظري، لكن ذلك التلميذ لم يكن متلقيًا فقط!.. وكم كانت مفاجأة لك حين قلت:

ـ أنـا لا أؤمن بوجود هـذا الحب الذي تتكلمين عنه.. أو هو بالأحرى وهم خادع..

قلت والدهشة تعقد لسانك:

ـ كيف؟.. كيف لا تؤمن بوجوده؟!..

ـ إن ذلـك الحـب الـذي تتكلمين عنه قد مـات منذ زمن طويل ورم عظمه.. مات مع قيس وليلى، وروميو وجولييت، ومموزيـن.. وأمـا مـا نجـده في الواقـع اليـوم، دعينـا نسـمّه استلطافًا.. نسـميه ضرورة، حاجة، غريزة، نسميه تجاذبًا بين طرفين غير متماثلين.. أما أن نسـميه حبًـا.. فلا!.. لئلا نجني على الحب ونلبسـه ألبسة مهرج في سـيرك، ونلقي به في حلبة أيامنا هذه..

ـ ولكنني!.. ولكنني!..

وانتحرت الكلمات على شفتيك قبل أن تحرك أي ذرة من ذرات الأثـير.. كتبتِ لي بعدهـا بقايا حروف، بقايا كلمات، لم تقوليها سـابقًا.. قلت في نفسي هـذا رماد النار التي أطفئت.. نقَّبت بين تلك الحروف، نقبت في ذلك الرماد، فوجدت وراء كل حـرف جبلًا مـن جمر، يكـوي، يحرق، ويتوهـج.. كانت كلماتـك تتهمني من تحـت الرمـاد، بتبلُّد الإحسـاس، كانت تصرخ بي:

– ألا تـرى تلـك الماثلـة أمامـك، تناديك فاتحـة ذراعيها لتضمـك إلى صدرهـا؟!.. ألا ترى ذاك القلـب الذي يتفجر لـك عن أسـمى عاطفـة وأنبلها؟!.. ألا تـرى تَيْنِـك العينين اللتـين تسـتغيثان بـك لـتروي ظمأهمـا؟!.. ألا تـرى تينِـك الشفتين اللتين ما برحتا ترتجفان من غير أن تستطيعا أن تنطقا بكلمة أحبك؟!.. ما بك؟!.. ألا تتحرك؟!..

وقفت يومهـا حائرًا.. هل هي تحبني فعـلًا؟.. وأي نوع مـن الحب تكن؟.. وهـل أنا أبادلها نفس المشـاعر؟.. أم أنني أحمل مشاعر أخ وصديق؟..



دخلت إلى نفسي أستكشفها، أحاورها، أستبصر الأمر منهـا، وجدتهـا تبوح لي وبكل صراحـة أن لا أخوة بينكما ولا صداقة.. بل هو حب.. استنكرت هذا منها، زجرتها، عنفتها، تشبثت برأيي أن هناك أخوة.. بل صداقة على الأقل.. لكنها صرخت وكأنها قاض في محكمة يدلي بحكمه الأخير:

- إنه حب مع العواطف السامية المؤبدة.. صدر الحكم.. رُفِعَتِ الجلسة!..

ارتميت في زنزانة الحب أعاني منه ما أعاني، أسـائل نفسي كيـف أبيـح لنفسي أن تتوغـل في غابـة الحب بعـد أن غطى الشيب رأسي، وسرى ثلج آذار في عروقي؟ قررت أن أخفي ما بنفسي، وألا أعترف أمامك بما أعـاني، وإذا بكلماتك تدك صرح صمودي، تعيد الدم الشـاب إلى عروقي، ينفرج فمك عـن كلمة أحبك.. ويكتبهـا قلمك عشرات المرات، أسطرًا متتاليـة، فـما تمالكـت إلا أن جلسـت على كـرسي الاعتراف، لأقول لك وأنا أيضًا أحبك.. طربت لهذا الاعتراف، وطربت أنا لطربك، انتشيت وانتشيت، عشنا في جو ملائكي، حلقنا

عاليًا عاليًا..، سمونا على مادتنا، وارتقينا سلالم السماء، فحلقت روحانا في سماء من الصفاء والنقاء والنور الإلهي..

عدت إلى الأرض أنتظرك، فانتظرت وانتظرت، وأنت تسبحين في جو عابق بالرومانسية، تغتسلين بعطر الحب وتتنشفين بشمسه، تشربين عشقًا.. وتتغذين هيامًا.. وعندما أجبرتك أن تعودي إلى فلك الأرض لتري ذلك الرأس الذي اشتعل شيبًا، وذلك العمر الذي قد انقضى معظمه.. قلت لي يا صغيرتي بلا مبالاة:

ـ لا يهم.. أحبك أنت.. أحبك كما أنت، أنت من رُسِمْتَ في خيالي.. وبك حلمت..

ساءلت نفسي ترى هل يجتمع الربيع مع الخريف في آن واحد؟.. هل يجتمع البرعم الناعم مع جذع شجرة ذي لحاء جاف متشقق يا ترى؟!..

ما أسهل أن نتكلّم عن المتناقضات يا صغيرتي، ولكن ما أصعب أن نعيش هذه المتناقضات!.. وخوفًا عليك من الانجراف في تيار الغروب، وهروبًا بنفسي من السباحة

عكس التيـار، وهروبًا من غول المتناقضات، جهزت حقيبتي ورحلت عنك بعيدًا.. وشفتاي تتحرّكان الآن لتقولا لك:

- أنت لسـت أختي، ولسـت صديقتي، أنـت حبيبتي.. أجـل حبيبتـي رغمًا عنـي.. ولقـد هربت بعيدًا لأن شمسـك شـمس صباح وإشراق، وشمسي شمس مغيب وأُفول، فبعد شمسك نور ونهار وحركة وحياة.. وبعد شمسي ظلام دامس وليـل وسـبات، فعيـشي صباحك حبيبتـي، فجـمال الصباح بعصفورين غريدين شـجيين وليس أحدهما أجش.. فالوداع ياحبيبتي!..



٢١- وا معتصماه!..

الدماء.. الدماء.. الأطفال.. الشيوخ تستصرخ تنتحب تنادي بأعلى أصواتها:

- وامعتصماه!.. وامعتصماه!..

هُدِّمَت المنازل فوق رؤوس أصحابها، ذُبِحَت الأطفال بشظايا العدوان وسال دم البراءة!..

ذُبِحت الطفولة ذبح الجمال وذبحت البراءة!.. انهمرت الدموع من أعين الشيوخ وسالت على خدود مجعدة تحفر خطوطًا جديدة، هتكت الأعراض، حَثَتِ النساء على رؤوسهن التراب..وهن ينادين.. يصرخن:

- وامعتصماه!.. وامعتصماه!..

شوارع لبنان معبدة بالدماء، تلك الشوارع التي استبدلت فيها الورود بالدبابات والرصاص الإسرائيلي، فمكان كل ورده طلقة تزرع الموت وقنبلة تفتت أجساد الأبرياء إلى أشلاء، ومكان كل زهرة حربة تغرس في كل قلب نابض بالحب والحياة، وحل محل عبير الزهور وأريجها رائحة

البـارود ودخان حقد الصهيونية وقذارتهـا.. هُدِرت الكرامة وضاعـت القيـم فحلـت شريعة الغـاب مكان شريعـة القيم والخير فباتت قوى الشر تدمر.. وتخرب.. وتقتل.. وتسـتبيح الأعـراض.. ولا ترحـم طفلًا، ولا تشـفق لدمعـة كهل، لقد بُحَّتْ حناجر النساء وهي ما زالت تصيح وتصرخ:

- وامعتصماه!..

دمـاء الأطفـال والأبريـاء تنـادي وتسـتغيث.. تنـادي أصحـاب الكرامـة.. أصحـاب النخـوة والشـهامة.. الدماء العربية المهدورة تنادي الضمائر العربية وتسـتغيث مسـتنجدة تسأل:

- هـل هنـاك آذان تسـمع؟.. هل هناك مـن منجد؟ هل هناك من مغيث؟ أين أنت أيها المعتصم؟!.. أين أنت؟!..



٢٢- أريد حنان

ـ أريد حنان..

شـهيق.. بـكاء لاهث.. دمـوع تنهمر كميـزاب إثر مطر غزير.. أسىً يغضِّن وجهها الطفولي البريء..

ـ أريد حنان.. لا أريد أن أذهب معك..

ـ اصعدي يا حبيبتي!..

شـلال من الدمـوع، أكتافها تعلو وتهبـط، كلمات لاهثة متقطعة

ـ لن أصعد.. لا أريد الذهاب معك..

ـ اصعدي..

ـ لن أصعد..

امرأتـان ترتديان السـواد حاولتا دفعهـا إلى باب الباص عـدة مـرات، عينـا أم قد خالـط جمالها حـزن مبهـم، ترقبان بتلهـف.. قاومتْ بجنون، اندفعت إلى الوراء، تراجعت بقوة لايمكن أن تتمتع بها طفلة في مثل سنها الذي لايتجاوز الثماني سنوات، كادت تطرح المرأتين أرضًا، أمسكتاها بقوة وعنف، دفعتها الأولى بقوة وصرامة، صاحت الأخرى:

ـ اصعدي يا مجنونة!..

ـ لن أصعد!..

امرأة في الثلاثين من عمرها كانت قد سبقتها وصعدت سلم الباص، حاملة فوق كتفيها رأسًا قد شحب وجهه، وهربت دماؤه إلى المجهول، استعطفت بصوت رقيق:

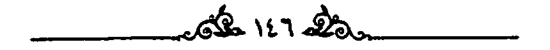
ـ اصعدي يا ابنتي.. هيا اصعدي فأنا أمك!..

بكاء حاد وحركات مجنونة وحنجرة كادت أوتارها أن تتقطع..

ـ لا أريد الذهاب معك!.. أريد حنان..

عيون كثيرة ملأتها الدهشة وحب الاستطلاع، تطل من نوافذ السيارة ترقب ما يجري، تستعجل صعود الصغيرة، فقد طال الوقوف.. أحدهم نظر في ساعة يده أكثر من ثلاث مرات، وآخر بدين الجثة كان يغط في نوم عميق، فتح عينيه مستغربًا طول الوقوف، وآخر صاح محتدًا موجهًا كلامه للسائق:

ـ احترقنا.. الدنيا حر.. إلى متى هذا الانتظار.. هيا تحرك!..



ـ انتظر.. لحظة يا أخ ريثما تصعد الصغيرة..

ازدادت حدة العراك والتدافع أمام باب الباص، وأخيرًا انتصرت المرأتـان اللتان ترتديان السـواد، فأصعدتا الصغيرة إلى الباص وبقيتا واقفتين على أرض الشـارع.. أمسكتها أمها بلطف وجذبتهـا إليها برفق، عويل الصغـيرة يتعالى ويتعالى، محاولـة عدة مرات القفز من الباب إلى أرض الشـارع.. صاح أحد الركاب بذعر:

ـ أغلق الباب بسرعة!..

أغلـق الباب ببطء وكأنه باب سـجن الباسـتيل، وعيون الصغـيرة ترقبـه بهلـع من خـلال الدموع.. سـارت السـيارة وصوت الصغيرة يقرع الآذان:

ـ أريد حنان.. لا أريد أن أذهب معك.. أريد حنان..

قالت الأم مرتبكة من وقع سيل العيون المتفحصة حولها وكأنها سياط عذاب تجلد جسدها الذي أحست وكأنها بدأت تفقد السيطرة عليه:

ـ لمـاذا لا تريديـن الذهاب معـي فأنا أمـك!.. هل هناك بنت لا تحب الذهاب مع أمها؟.. فأنا أ.. ن..



وماتت الكلمات على شفتيها ولم تعد ترى عيون الركاب التي تحملق بها.. ولم تعد تسمع صوت المحرك المزعج، ولا حتى صوت صراخ ابنتها وبكائها.. انطرحت على الأرض بين أرجل الركاب تتكلب في رأسها إغماءة دنيئة.. تعالت الصيحات:

ـ احملوها..

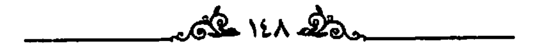
ـ أجلسوها على كرسي..

ـ ماء!.. ماء!.. أيها السائق هل لديك ماء؟..

ـ انقلوها إلى المشفى..

عويل البنت ما زال يتعالى وصراخها يصم الآذان.. وعيناها لم تلتفت ولو للحظة نحو الأم المسجاة بين الأرجل وكأنها دمية مهملة.. تكرهها لا ترغب فيها لا من قريب ولا من بعيد.. لقد كانت تتطلع إلى الخلف إلى حيث تركت حنان، صائحة أريد حنان أنزلوني أريد حنان..

أخلى أحد الجالسين مقعده، تشابكت بعض الأيدي فحُملت الأم وإغماءتها إلى ذلك المقعد، تركزت العيون بحدة على عينيها اللتين ضاعتا في الأحداق ولم يبق فيهما أي مسحة



من جمال.. حتى إن الرجل البدين قد أزعجته تلك الضوضاء، ففتح عينيه ببرود ليتسلل بهما إلى ما يجري حوله..

صاح رجل أشيب:

ـ ماء!.. ماء!..

تناول من يد السائق وعاءً قذرًا وراح يسكب منه الماء على وجهها ويدعك به وجنتيها وجبهتها.. إحدى النساء الراكبات على ما يبدو لم تستسغ أن يدعك رجل وجه امرأة وأمام كل تلك العيون، فقامت من مقعدها ودافعت الوقوف حتى وصلت واستلمت تلك المهمة عن ذاك الرجل الأشيب، ثم راحت تصفعها صفعات متتالية على وجهها محاولة أن تخرجها من إغمائتها..

بكاء الصبية مازال مسموعًا و دموعها مازالت تنهمر و عيناها تنظران بعيدًا عن أمها بقلق بالغ..

صوت المحرك مازال يهدر بشراسة، يطغى على همهمات الركاب و صخبهم، والطريق تنطوي تحت العجلات.. وخوف الصغيرة يزداد و يزداد..

بعد أن شبعت الأم من الصفعات، وبعد أن أخذت نصف حمام بماء بارد فتحت عينيها ببطء شـديد وكأن سحابة سوداء كانـت ترزح فوقها.. وعندما اقتحم الضوء عينيها انتبهت إلى مـا هي عليه راحت تصلح من جلسـتها عـلى المقعد، وتلملم أطـراف ثوبهـا باسـتحياء بالغ وهـي تنبش في ذاكرتهـا: يا الله مـاذا حصل لي؟!.. أذكر أنني كنت واقفة من الذي أجلسـني عـلى هذا الكرسي؟!.. و كيف؟!.. ومـا هذا الماء الذي يغرق وجهي و ثوبي؟!..

نظـرت إلى المـرأة التي كانت تقـف تجاهها مبتلـة اليدين وهـي تمـرر إحـدى يديها عـلى جبهتهـا منحـدرة إلى وجنتيها فجيدها وسألتها:

ـ ماذا حصل لي؟..

ـ إغماءة بسـيطة لا شيء يذكر.. أريحي رأسـك على مسند المقعـد.. اشربي قليلًا من المـاء.. الصغيرة كانت قد تعبت من البـكاء فراحت تفرك عينيها بظاهـر قبضة يديها وهي ترتجف و تشـهق بعصبيـة، رمقتهـا الأم بنظـرة قد انطمسـت معالمها

وعـادت فأسـندت رأسـها المنهـك إلى كرسـيها وتركتـه نهبًا لشريط ذكريات عمره تسع سنوات:

أحببته يومها بكل كياني.. كان شـابًا وسيمًا ذا شعر أشقر ناعـم وعينـين فيهـما خـضرة الربيع وقامـة مربوعـة لا تحمل سـمنًا ولانحافـة، بهـي الطلعـة خجولًا كعـذراء.. يـوم قال لي: أحبـك!.. احمر وجهـه وتقطعت كلماته وكأنه ينتشـل كل حرف من تلك الكلمات من مكان ما من جسـده، أحسسـت يومهـا بدفء الكلمات، أحسسـت بالربيع يسري في عروقي، أحسسـت وكأن العـالم أصبح ملكي، كنـت أحس بزهو كبير وأنـا أتكلـم عن حبي له، وددت لو أن العـالم كله يعرف حبنا هذا، ويعيشه معنا.. وينعم بدفئه.

زواجنا.. زواجنا.. ليته لم يتم!.. هل أطفأ الزواج شـعلة الحب؟.. هل بدد كل تلك الروعة التي كنا نحسـها ونعيشها كحبيبين؟.. لا!.. لا أظن ذلك.. فلقد عشنا سنتين كأجمل ما يكـون، نعمنا بدفء الحياة الزوجية، وأثمر ذلك الدفء ابنتنا ناهد..

هدير المحرك ما زال يئـز كنحلة احترق جناحها، نظرت إلى ابنتها فوجدتها واجمة وكأنها غارقة في بحر من الهم والقلق، جالت بناظريها على الركاب، مستطلعة فيما إذا كانت العيون ما تزال ترقبها، رأت أن الكل مشـغول عنها إلا بعض العيون الفضوليـة التي كانت تحاول أن تتسـلل إلى مخها لتقرأ حروف قصتها..

أعادت رأسها إلى مسند كرسيها وأغمضت عينيها لتتابع لنفسها قصة حزنها بعيدًا عن العيون الفضولية..

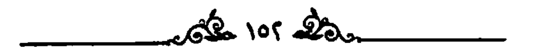
أذكـر أن أمـي قالـت لي إن الرجل عندما يجـد أي نقص عاطفي داخل بيته، فإنه سـوف يفتش عنه خارجه، فعليك أن تملئي عليه حياته.. وأكدت جارتنا لي هذا الكلام قائلة:

ـ هل سألت نفسك لماذا يسهر زوجك كل يوم إلى ما بعد منتصف الليل خارج البيت؟

ـ لا!.. ولكنني أعرف أنه تغير كثيرًا منذ أنجبت ناهد..

ـ إن اهتمامك بناهد يأخذ أكثر وقتك وتنسين زوجك..

ـ لكـن الصغـيرة بحاجة إلى الاهتمام أكثـر مما هو بحاجة إليه..



ـ كلاهما بحاجة إلى الاهتمام، اسمعي نصيحتي يا سهير إذا لم تهتمي بزوجك الاهتمام اللازم فستجدينه يومًا خارج قفصك يغرد خارج سربك..

ازداد سهره خارج البيت، وأصبح شجارنا يوميًا كفرض الصلاة له مواعيد وطقوس، حاولت الاهتمام به أكثر، حاولت النفخ على جذوة حبنا كي تتوهج كسابق عهدها، لكنني شعرت من معاملته أن الجذوة قد خبت وتحول معظمها إلى رماد..

سمعت أن له علاقة بامرأة أخرى!.. طار صوابي يومها، تمنيت أن أغرز أظافري في وجهه، أن أقتلع شعره الأشقر بأصابعي، تمنيت أن أبصق في وجهه.. أهكذا وبكل بساطة يذهب إلى امرأة أخرى!.. أين حبنا؟.. ماذا فعل بذلك الرباط المقدس الذي يربطه بي؟.. أألقاه في سلة مهملات؟.. أم باعه في سوق النخاسة لامرأة عاهرة؟!.. لقد باع ذلك الرباط وباع حبنا وباعني أيضًا بورقة طلاق قبل أن أسمع بأنه قد تزوج من تلك العاهرة، لست وحدي التي أقول عنها (عاهرة) بل كل من يعرفها قال عنها ذلك..

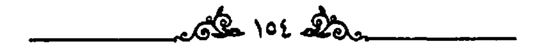
هنت عليه وهانت أيضًا فلذة كبده ناهد.. أيستبدلنا نحن الاثنتين بتلك الـ..؟..

يوم تركت له ناهد في البيت وعمرها أقل من سنة وخرجت، كنت أحاول أن أضعه في مأزق، أضعه أمام ابنته التي تحتاج إلى من يرضعها ويعتني بها ويربيها.. كنت أريد عذابه، كنت أريده أن يتراجع عن خطوته الرعناء تلك.. لكنه وجد للأمر حلًا وبمنتهى السهولة، فقد أرسل ناهدًا إلى أخته حنان التي تعهدت له بتربيتها بعد أن يئست من إعادته إلي.. وعاش مع تلك الـ.. التي رفضت منذ البداية فكرة وجود ناهد معها في بيت واحد..

انتقامًا منه ولكرامتي ومن الـ.. تزوجت مباشرة من أول خاطب تقدم لي..

وقف الباص نزل بعض الركاب وصعد آخرون وقلّت العيون التي كانت ترقبها، والرجل البدين كان قد فتح عينيه من غفوته ليجد نفسه قد فاته أن ينْزل في المحطة التي يريدها، فصاح وكأنه آت من عالم آخر:

ـ أنزلني!.. أنزلني هنا!..



رد السائق عليه بخشونة:

ـ انتظر حتى نصل إلى المحطة القادمة، لا أستطيع الوقوف هنا!..

نظرت إلى الرجل البدين وراودتها فكرة بلهاء:

ـ إذا كان زوجي السابق ذاك الرشيق النحيل يحمل قلبين في صدره - لقد أحبني وأحب تلك الـ.. - فكم قلبًا يحمل هذا البدين في صدره؟.. لابد أنه يحمل خمسًا أو ستًا على الأقل..

نهضت الصغيرة وحاولت النُّزول من الباص لدى وقوفه في المحطة، فأمسكت أمها بيدها وجذبتها إليها:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟..

ـ أريد أن أرجع إلى حنان!..

ـ اجلسي ياحبيبتي.. استريحي، ستزورين عندي أسبوعًا فقط ثم تعودين ثانية إلى حنان..

نظرت الصغيرة إلى أمها نظرة ريبة وشك، ملأى بالحقد والكراهية.. أحست الأم بتلك النظرة وكأنها تنفذ إلى أعماقها صارخة:



ـ لقـد ضعـت أنـا بينـك وبـين أبي، لقـد تزوج ونسـيني وأنـت كذلك.. فأنا يتيمة الأبوين، وأنتـما ماتزالان على وجه الأرض.. ماذنبـي أنـا؟.. ما ذنبـي أعيش محرومـة من الأب والأم؟!..

وقطع شرودها صوت ابنتها يناديها بقوة:

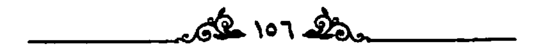
ـ قلت لك أريد أن أرجع إلى حنان!..

ـ يا حبيبي!.. اشتقت إليك كثيرًا وأريدك أن تقضي معي هذا الأسبوع فقط، وسأشتري لك كل ما تحبينه و تطلبينه!..

ـ أنا لا أريد منك شيئًا أنا أريد منك حنان فقط.. أتفهمين أريد حنان فقط؟!..

قالـت الصغـيرة ذلك والغضب يفور مـن عينيها كتنور، قالت الأم في نفسها وهي تعيد رأسها إلى مسند كرسيها:

ـ لقـد ملؤوها حقدًا عـلي لأنني لم أرضَ اصطحابها معي وتربيتها يوم تركت أباها، لقد شعرت بحقدها يزداد يومًا بعد يوم، وسنة بعد سنة، عندما كنت أزورها في بيت عمتها حنان كل شهر أو شهرين مرة..



توقف الباص في محطته الأخيرة، أمسكت الأم يد ابنتها ونزلتا، ومشت تجرها من يدها والصغيرة تميل بجسدها إلى الخلف متراجعة وكأنها مسوقة إلى حبل مشنقة، وهي تصيح بأعلى صوتها:

ـ أريد حنان!.. أريد حنان!..



٢٣- الأحلام المسروقة

ارتعد جسده وكأن تيارًا كهربائيًا سرى داخله، فتح جفنيه فبدت عيناه ككرتين تريدان الانطلاق، لكن تحجر نظراته قد منعهما، حاولت الشفتان أن تلفظا أحرفًا لكن هول المفاجأة لجمها، فتهدلت الشفة السفلى وانفغر الفم.. أسرعت اليدان تنقبان.. تبحثان بعصبية بالغة تحت الفراش.. تقذفان بأشياء بعيدًا، تبعثر أشياء أخرى، ضربات قلبه تسارعت حتى خيل إليه أنه يسمعها تدق كطبول الحرب.. الدم هرب من وجهه وأطرافه، فطرح الخريف عليها وشاحه الأصفر..

اليدان ما زالتا تبحثان تبعثران بعصبية بالغة، وبعد يأس قاتل توقفتا عن الحركة، وكأن الكهرباء قد انقطعت عنهما، تراخى الجسد كله وانطرح فوق الفراش الذي كان يخبىء تحته أحلامًا كثيرة.. يسقط كعصفور طائر رمي بسهم من صياد ماهر، يتسربل بأفكاره المشوشة، يغتسل في حمام الجنون، يموء كقطة فقدت صغارها، يموء بانكسار..

ـ لقد سرقت أحلامي.. آه أحلامي سرقت..



لحظـات.. وانتصـب التحـدي في عينيـه جبـل غضب، ينتفض.. ينظر بعيني حدأة إلى كل من حوله، يثور ألم السـهم في أحشائه.. يزأر كلبوة فقدت صغارها..

ـ أنتم السارقون.. أجل أنتم السارقون.. ومن غيركم؟.. أعيـدوا ما سرقتم، كلكم تعرفون أن تحت فراشي هذا أخبىء كل أحلامي.. من أخذها منكم؟..

ينصـب عليـه سـيل مـن النظـرات تقـترب منه أجسـاد تستطلع أمره وعلى الوجوه رسمت الدهشة و الاستفهام:

ـ ماذا سرق منك يا..

لا يجيب.. صوت آخر يرد ساخرًا:

ـ يقول أحلامه و هل الأحلام تسرق؟..

ـ لا بد أن هناك خللًا في برج القيادة عنده..

ـ دعونا نفهم.. قل ماذا سرق منك؟..

نظراتـه رمـح فـولاذي يعمله في وجـوه الملتفـين حوله، ينقب به عن بذرة قلق زرعها ذلك العمل المشـين، يتفرس في الوجـوه يرقب حركات العيون، يهجئ الأفكار.. يأس قاتل، إنه لم يسـتطع قـراءة شيء.. يعرك عينيه بظاهـر قبضتي يديه،



يشحذ بصره لينفذ داخل عظام جماجم الرؤوس المحيطة به ليستطيع القراءة بوضوح، يسبح عبر تلافيف الأدمغة، يغوص في أثنائها، يحفر في أوديتها منقبًا.. يضيع في متاهاتها.. وعندما يقترب من وادٍ سحيق مظلم، يعرف أن بحثه بات بلا طائل، يطفو على السطح كدلفين شبه ميت.. مستجديًا بارقة أمل في الحياة..

- من المؤكد أن واحدًا منكم هو الذي لعب هذه اللعبة.. إنها مزحة غليظة، على كلٍّ أرجو منه أن ينهي هذه اللعبة السمجة، ويعيد إلي ما سرق..

- أوه كم أنت ممل!.. قل ماذا سرق منك كفاك تلاعبًا بالألفاظ؟..

- تسألون ماذا سرق مني وبينكم العارف بمصيبتي، ليتكلم هو ويشرح لكم، فهو يعرف ما أخذ..

- إن لم تتكلم تركناك وخرجنا من هذه الغرفة، ولتنطح رأسك بحيطانها الأربعة..

- كيف لا أتكلم وأنا المجروح.. كيف لا أشكو وأنا المصاب.. يا أصدقاء غربتي، يا من تقاسمت معكم آلام

الغربة والبعد عن الوطن والأهل، يا من تقاسمت معكم رغيف التعب والعرق.. يا من عاش معي في هذه الغرفة التي ضمت أجسادنا.. أرواحنا.. ذكرياتنا.. أحلامنا.. وأشواقنا.. كل منا كان ينطلق من خريف هذه الغرفة إلى ربيع يبنيه بيديه في بلده.. في هذه الغرفة يا رفاق الغربة بنينا جبل الأحلام لبنة لبنة.. اليوم في هذه الغرفة قتلت الصداقة، وتهدم جبل الأحلام!.. اليوم سرقت أربع سنوات من عمري، سرقت زنابق أحلامي واجتث كؤوسها منجل حاد.. في هذه الغرفة التي حوت أرواحنا المطحونة برحى الغربة نمت روح ماردة خبيثة، روح غول شرير، أكلتني اليوم وستاكلكم غدًا.. هذه الروح دفعت بصاحبها إلى أن تمتد يده إلى تحت فراشي هذا وتسرق تعب أربع سنوات.. أجل رواتب أربع سنوات كاملة، ادخرتها هنا تحت هذا الفراش، وكلي أمل أنني بهذا المبلغ أستطيع أن أزيح ولو بعض لبنات جدار الفقر العريض الذي يرزح فوق صدر عائلتي.. عائلتي تلك التي تحلم بعودتي وأزهار المنى والربيع بيدي.. آه وأولادي.. أولادي الذين حرمتهم من لعب طفولتهم من أجل بناء غد أفضل لهم.. لقد ضاع الآن كل شيء، بل ذبح كل شيء، حتى كبش

الصداقـة والعرق الواحد والألم الواحـد والأحلام الواحدة، ذبحـت مـن الوريـد إلى الوريد.. أجـل لقد ذبح الإنسـان في غرفتنا هذه وسـقط على أرض الغربـة ناضحًا دمه، وعيونكم الفولاذيـة تنظـر ببلاهة كبلاهـة دب قطبي.. آه.. مـاذا أقول لهـم هناك عندما أعود؟.. أأقول لهـم إنني عدت إليكم لأبني لبنة جديدة في جـدار الفقر؟!.. أم أقول لهم لقد عدت إليكم لأشـارككم الحرمـان والشـقاء؟!.. أم أنوح وأقـول لهم لقد سرقـت وسرق مـن عمـري وعمركم سـنوات ثـم رميت في مزبلة الزمن؟!.. أم أقول لكم إنني كنت في هذه الغربة كحمل وديـع حمل من الشـقاء أكثر مما يسـتطيع ثم أكلـه ذئب يدعي أنـه صديق..هاأنذا أعود إليكم وقد كبرت وكبرتم سـنوات، هـل أقول إنني أمضيت هذه السـنوات أعمل على رفع صرح الفقـر عاليًا.. هكذا تريدونـي أن أقول؟!..كيف لي أن أقول ذلك؟.. والآمال المعقودة تشرئب أعناقها، والأحلام أشجار باسقة تناطح السحاب..آه!.. كيف لي أن أجز الأعناق وأقطع جذور الأشجار؟!.. كيف لي؟!..

انحنى على فراشه يمشطه بنظراته وكأنه غير مصدق لما حدث، ترقرقت دمعة في مآقيه، حاول أن يداريها، لكنها فضحته عندما التقت عيناه بتلك العيون المحيطة به والدهشة تسري في نظراتها، ترسم ألف معنىً ومعنى..

نظر إلى الأفواه فكانت تنفتح وتنغلق وكأنها تجتر اللاشيء..

ضاق صدره من هواء الغرفة وشعر بأنه ثقيل فاسد، فخرج مسرعًا ناظرًا إلى الأفق البعيد، محاولًا استنشاق هواء أنظف..



٢٤- الأم

(استأذن غوركي في استعارة العنوان)

الكاتب

انطلق صوت من داخل الغرفة:

ـ أحمد!.. أحمد!.. لاتدخلوا غرفة الضيوف، ادخلوا إلى هنا يا أمي.. الدنيا برد.. تعالوا.. تعالوا..

الجبال المطلة على (دروشة) لبست ثوبًا ثلجيًا أبيض، والشمس هجعت خلف الغيوم البيض، التي مازالت تبشر بهطل ثلجي غزير، البرد قارس، والنسمات تلسع الجلد لسع السياط.. والأرض موحلة، والحذاء يحمل أكثر من وزنه طينًا.. نبات الشيح المزروع في حديقة البيت وشجيرات الورد التي تخلت عن أوراقها انكفأت على أنفسها وكمنت خوفًا من الثلج وغفت بانتظار الربيع..

الصمت يلف الجو بعباءته، وهدوء يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة، خرق هذا الصمت خوار بقرة، ملَّت على ما يبدو المكوث في الحظيرة، وتاقت إلى المرعى الفسيح..

ولجنا الغرفة، فلفحني دفئان: دفء الغرفة، ودفء الاستقبال، فطغى دفء الاستقبال على دفء الغرفة.. امرأة في بداية العقد السادس من عمرها هبت واقفة هاشة باشة مرحبة بي فأنزلتني من الغرفة خير منْزل، ونثرت العديد من الوسائد كي أستريح في جلستي، وكلمات الترحيب تنهمر بسخاء معبرة عن نفس طيبة، صافية، نقية، بيضاء كبياض الثلوج، التي تغطي قمم الجبال في ذلك اليوم.. كانت الكلمات تنطلق من فيها بسلاسة وعفوية كجدول يسير الهوينى، ليروي كل ما يمر به فيغذيه وينميه..

ـ ما أغلى من الولد إلا ولد الولد..

قالت وهي تشير إلى طفلين صغيرين يعبثان بكل ما تصل إليه أيديهما، ويتحركان حركة دؤوبة، لا ملل فيها ولا كلل..

أشرت إلى الطفلين:

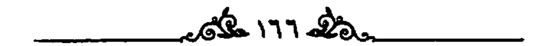
ـ أولاد ابنك؟.. يا خالة..

ـ لا.. أولاد ابنتي.. تتركهم عندي كل يوم وتذهب إلى وظيفتها، إنها تدّرس في القرية المجاورة..

ـ لكـن.. أليـس صعبًا عليهـا أن تجمع بين عـبء البيت وعبء العمل، خاصة وأن عندها أطفالًا صغارًا؟!..

تبسـمت ابتسـامة حملـت في طياتهـا كل معـاني الطيبـة والمسؤولية وأردفت قائلة:

ـ الحيـاة صعبة يا بني، ومن الواجب أن يتعاون الزوجان لتأمـين متطلبـات حياتهم وحيـاة أطفالهـم.. وخاصة في هذه الأيـام.. كل شيء أصبـح ضروريًّـا، فـما كنا نسـميه كماليات أصبح اليوم من الضروريات.. فالبراد والغسـالة والتلفزيون والسيارة وأشياء أخرى كثيرة جدًا لم يعد يستطع الجيل الجديد الاستغناء عنها أبدًا، لذلك ترى الجميع يركضون ويلهثون في سبيل تأمين هذه الأشياء التي كنا لا نعرفها سابقًا، حتى البيت المسـتقل للزوج والزوجة يقولون إنه أصبح من الضروريات فلا يرضى الابن أن يتزوج في بيت أهله، وحتى أهل العروس لا يرضون ذلك.. وهات يا ركض!.. و هات يا لهاث!.. فقد ينقضي العمر ولا يسـتطيع الواحد منهم أن يؤمن معظم هذه الأشياء..



ـ لكن هذه الكماليات التي أصبحت من الضروريات كما تقولين، أراحت الإنسـان وجعلته منعمًا مرفهًا، ووفرت عليه الكثير من الجهد والتعب..

ـ أراحـت الجسـم.. وأتعبـت الجيب والفكـر..، كنا بلا هذه الكماليات نعيش عيشة بسيطة مليئة بالمحبة وراحة البال، وكلنـا بعضنا مثلُ بعـضٍ.. ووضعُنا المـادي قريب بعضه من بعضٍ، فلا نشـعر بأن هناك تسابقًا على هذه الأشياء، أما جيل اليوم فهو جيل مسـكين وقع في فخ السـباق ولا يعرف كيف يخرج منه..

ـ الحياة يا خالة كلها ركض وكفاح هكذا خلقها الله..

بـكاء أحـد الولدين خـارج الغرفـة جعلها تركـض إليه مذعورة، ضحك أحمد وقال باعتزاز:

ـ هـذه هـي أمـي.. إنهـا تحـب كل النـاس وقلبها يتسـع للجميع، إنها تفني حياتها من أجلنا جميعًا بلا كلل ولا ملل إنها تعطي وتعطي دائمًا.. ولا تنتظر منا جزاءً ولا شكورًا.. تصور أنها تقـوم بأعباء المنْزل من طبخ وغسـل وتنظيـف بمفردها،

بالإضافة إلى العمل المجهد في الأرض.. كما أنها تقوم بالاعتناء بالدواجن وحلب البقرة.. بصراحة إنها تقوم بكل هذه الأعمال بلا أدنى تذمر أو تأفف وترفض أن نساعدها بأي عمل من هذه الأعمال وتقول لنا: اهتموا بشؤونكم وأعمالكم أريدكم أن تكونوا من المتفوقين بكل شيء.. قد تستغرب أن لديها أيضًا الوقت الكافي لكي تهتم بكل صغيرة وكبيرة في حياتنا وتسدي إلينا النصح والتوجيه!..

فتح الباب ودخلت الأم وهي تحمل أحد الصغيرين وهو يبكي لتزحلقه بالطين وتوسيخ ثيابه.. صوت الأم يواسي الصغير:

ـ لا تبك يا حبيبي.. سأبدل لك ثيابك، اجلس في الغرفة والعب.. ولا تخرج لأن الأرض في الخارج طين بطين!..

بدلت ثياب الطفل، ثم حملت بعض حبات البطاطا وقالت:

ـ عن إذنكم أريد تحضير طعام الغذاء، اهتم بضيفك يا أحمد ولا تقصر في ضيافته!..

تبسم أحمد وقال:

ـ أجـل!.. هـذه هـي أمـي يـا صاحبـي.. بقلبهـا الكبير وبسـاطتها.. إنهـا كتاب مفتـوح تنهلُ من معينـه الصافي متى تشاء..

ارتسـمت عـلى وجهي علامـات الإعجـاب ووجدتني أتمتم:

ـ بارك الله بهذه الأم!..



٢٥- البَــرْد

- برد شديد يا حاج!..

- أجل.. البرد شديد يا حاجة!..

- لم أعد أستطيع التحمل!..

- اصبري يا حاجة!..

- وكيف يستطيع الإنسان أن يحتمل البرد؟!..

- الحق معك قد يستطيع الإنسان احتمال الجوع، لكنه لا يستطيع احتمال البرد..

- سأجلب حرام الصوف، ونضعه فوقنا عله يخفف من وطأة هذا البرد القارس..

- حرام الصوف؟!.. وهل بقي به صوف؟!.. لقد جز الزمن صوفه!..

- شيء أفضل من لاشيء، غطي نفسك جيدًا..

أوصالهما ترتجف، وكأنها تحت تأثير تيار كهربي، اقترب أحدهما من الآخر علهما يشعران بالدفء، لكن الدماء في عروقهما كانت تسير الهوينى، وقد قاربت على الجفاف



ـجفـاف جيب الحاج من المال، إذ إنّ راتبه التقاعدي لا يكاد يكفي لتأمـين اللقمة فقط فكيف بباقي المصروفات؟!.. تنهد بصـوت عالٍ تنهيدة حملت في طياتها كل هموم سِنِيه العجاف التي يعيشها، سمع الحاجّة تقول بصوت مرتعش:

ـ أنجبنـا ثـماني بنـات واثنين مـن الأولاد!.. أفنينا سِنِي عمرنا في سـبيل تربيتهم، تزوج الجميـع، ورفدوا الفقر بدماء جديـدة!.. خاضوا غِمار الحياة ومعتركها، فعصفتْ بهم رياح الحياة كلٌّ في اتجاه، فنسوا حليب أمهم وشقاء أبيهم!..

ـ كان الله في عونهم، لكل منهم اليوم شـأن يغنيه، فالحياة تطحنهم دون رحمة كرحى صماء، لكني أعرف أنهم يحنون إلى هذا البيت وإلى تلك الأيام الخوالي كما يحن الطائر إلى عشه!.. لقـد كانـوا يملؤون علينـا البيـت، ويضج بصخبهـم ودفء محبتهـم، أصبحنا أنا وأنـت اليوم يا حاجة وحيدين كشـجرة عجـوز هجرتها ثمارها وأوراقهـا وأطيارها، فوقفت عارية في وجه الريح والبرد!..

ـ آه الـبرد لا يطاق!.. قم تـصرف يا حاج، فتش في الجوار عساك تجد بعض الحطب كي نشعله ليدفع عنا البرد!..

نظر الحاج إليها نظرة استغراب وأجابها:

ـ كأنكِ ما زلت تعيشين في الماضي، أين هي الأشجار وأين هو الحطب؟!.. ألا ترين كيف اغتال الإسمنت والإسفلت كل ما هو أخضر ويابس، أتحسبين نفسك أنك مازلت تعيشين فيما يسمى بغوطة دمشق؟!.. وأين هي الغوطة الآن يا حاجة؟!.. أكداس (البلوك) زرعت محل الأشجار والزهور والرياحين.. هل تريدينني أن أحضر لك (بلوكة) كي نتدفأ بها؟!..

ـ لم أعد أستطيع الاحتمال، البرد يجمد الدم في عروقي، أكاد أموت..

تجمد الصوت وماتت الكلمة على الشفة قبل أن تنبس، الحاج استعاد شبابه وانتصب واقفًا كمارد جبار هزته ريح عاتية، وراح يدلك يدي الحاجة ووجهها، وهو يصيح:

ـ استيقظي يا حاجة!.. لا تتركيني أرجوك!.. أعرفك صبورة، وقوية فما الذي جعلك تنهارين!.. آه لن أجعل البرد ينتصر علي وعليك..



لا يعرف ما الذي جعل طيف طارق بن زياد يسيطر على مخيلته.. الجنود أصبحوا على اليابسة.. السفن ترسو خلفهم على الشاطئ.. طارق يريد النصر.. أحرقْ السفن يا طارق يكون لك النصر.. انتفض الحاج الشاب وقد بدا له طريق النصر واضحًا فراح يحطم الطاولة الخشبية الوحيدة والتي كانت تستعمل في البيت لطعامهم ولدراسة الأولاد.. الجميع كان لهم ذكريات وذكريات مع هذه الطاولة التي أكل الدهر عليها وشرب، وشاركتهم أغلب مراحل حياتهم.. راح الحاج يلقي بخشبها في المدفأة!.. اشتعلت النار.. ثم انقض الحاج على خزانة الملابس يحطمها.. تلك الخزانة الهرمة ذات الخشب المقفع، والتي شهدت عرسه يومًا، واستعملها الجميع منذ ولادتهم إلى أن تم لهم الزواج ومغادرة البيت.. اليوم لا ضير عنده في أن يحرق جميع مراكبه لينتصر على البرد ويستعيد الحاجة.. فتحت المدفأة فاها وراحت النار تزغرد داخلها، وهي تلتهم خشب الذكريات والتاريخ بشراهة.. انتشر الدفء في جو الغرفة وسرى إلى جسد الحاجة، الذي كان يُدلّك بيدي الحاج المعروقتين.. كانت عينا الحاج كعيني صقر تدوران في محجريهما، وترقبان الجفنين المغمضين.. وأخيرًا،

فتحت عينيها ببطء شديد، وهي تنظر إلى الحاج نظرة حب وامتنان، فصاح الحاج مغتبطًا، وهو يدور حول نفسه، وكأنه يرقص رقصة النصر:

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. لقد استعدتُك يا حاجة، لقد انتصرنا!.. لقد انتصرنا!..



٢٦- الحربـاء

انطلـق يعدو من غـير أن يلتفت وراءه، يحث الخطا باتجاه اللاشيء، ضجيج الشـارع وحركته الملتهبة لم تثر في نفسـه أي إحسـاس، واجهـات المحال التجاريـة ذات العـرض الأنيق وإضاءاتها الملونة لم تخفف من سرعة جريه، نظرات المارة التي تقرع جسده لم تشعره بأنه يعدو كمجنون..

خطواته متلاحقة، عيونه متسعة بشكل دائرة تتقيأ القرف والاشمئزاز، وجهه تتقلب ألوانه كحرباء.. وعقله لا يفكر إلا بصوت باب بيته عندما صفقته أنيسة خلفها وهي تصرخ:

ـ طلقني لن أعود إلى هذا البيت ثانية!..

شعر بإعياء شديد بعد هذا الجري اللاهث، ووهن يسري في جميع أنحاء جسمه، وعرق دبق يلصق ثيابه بما تحتها، أحس بالقـرف، تمنـى لو أنـه لم يلد، تمنى لـو يكون الليل بـلا نهاية، ليختبىء تحت جنحه الأسـود من نفسه.. ومن الناس.. ومن خالد وحميدة وفريدة، ومن كل شيء.. تمنى لو أن الزمن يعود القهقرى يرجع خمسة عشر عامًا فقط.. قال في نفسه:

ـ لو يرجع.. فسأقذف بحب أنيسة هذه إلى الجحيم، أجل إلى الجحيم، لا أريد حبها ذاك الذي أسرتني به في تلك الأيام.. لقد كانت جميلة يوم تعرفت عليها، كانت جذابة وذات روح حلوة، آهٍ كم افتتنت بها.. كنت أرى الحياة من خلالها، كانت هي كل شيء في حياتي، كنت أمنحها حبًا وشعورًا صادقين، لم أضن عليها بشيء، في يوم من الأيام كانت كلماتها أرق من النسيم، وأحلى من العسل.. آه مازالت تطرق ذاكرتي كلماتها يوم عرسنا:

سأعيش لك وحدك يا وجدي إنني أنذر حياتي من أجل أن يبقى حبنا أبد الدهر.. أنت حبيبي الأول والأخير..

ابتسم بسخرية تقطر اشمئزازًا وقرفًا.. وتابع يكلم نفسه:

ـ استهلاك!.. إن كلمات الحب في أيامنا هذه تستهلك أكثر من مناديل (الكلينكس)، كلمات جوفاء تلقى في الهواء كما يلقى أي منديل معطّر بعد استعماله!..

هدّه الإعياء والتعب، فألقى بجسده على أحد المقاعد العامة في الشارع وراح يتصور شريطًا سينمائيًا مدته خمسة عشر عامًا

مليئًا بالعذاب والنكد قضاها مع أنيســة.. في السنوات الأولى لزواجهـما كان يبثهـا كل مـا لديـه من حـب وحنـان.. لكنها كانـت تبادلـه ذاك العطاء بتعالٍ وتكـبر وصلف، وكأن جمالها قد غرس فيها تلك الصفات بعد الزواج، أو أن عطاءه الدائم لهـا هو ماجعلها ترتقي سـدة التعـالي والتكبر.. سـنوات مرة عاشـها وأنجب خلالها أولاده الثلاثة.. وبعد تلك السنوات المرة، مـرت الأيام الباقية ثقيلة مملة لكلا الطرفين، فقد نضب معين العطاء عنده هو الآخر، فصارت الحرب بينهما سـجالًا، والقصاص بينهما العين بالعين والسن بالسن..

شعر بالخدر يسري في ساقيه تململ على الكرسي الخشبي، راح يقلـب في مخيلتـه الصورة الأخيرة والحـوار الأخير الذي سبق صفق الباب:

ـ ما ذنب الأولاد يا أنيسة؟!..

ـ الأولاد كبروا وهم ليسوا بحاجة لي الآن!..

ـ مـا هذا الكلام؟ وهل ترضـين أن يعيش أولادك بدون أمهم؟!..

ـ قلت لك إنهم ليسوا بحاجة لي الآن!..

ـ فكري مليًا يا أنيسة!..

ـ إنني فكرت بما فيه الكفاية.. طلقني!..

ـ إذا طلقتك فهل ستكونين سعيدة في بيت أهلك؟

ـ هذا ليس من شأنك!.. بل سأكون صريحة معك أكثر، إنني أحببت شابًا.. هو صديقك سامر، أنت تعرفه.. واتفقنا على الزواج، وانتهى كل شيء..

تذكر كيف خرست الكلمات على شفتيه، وكيف تهدم فوقه جبل صمت مطبق، ولم يصحُ إلا على صدى صوتها يتردد في جنبات البيت وصفق الباب:

ـ طلقني لن أعود إلى هذا البيت ثانية!..

صحا من أفكاره على لمسات من أصابع يد أحد أصدقائه وهو يداعبه قائلًا:

ـ ما بال قيس بن الملوح شاردًا؟!..

ـ لعنة الله عليك وعلى قيس بن الملوح!..

نهض من كرسيه وكأن به مسًّا من جنون وانطلق يعدو باتجاه اللاشيء..



٢٧- الزمن الضائع

جلس على طرف إحدى الإطارات بعد ما أنهى إصلاحها وتعبئتها بالهواء..

راح العرق يتصبب من جبينه كقطرات ندى على سطح صخرةٍ حفر فيها الزمن أخاديد عميقة..

أخذ نفسًا عميقًا وكأنه يريد من الهواء الداخل إلى رئتيه أن يقتلع كل هموم صدره وأحزان حياته.. إنه كطائر بري هجر موطنه الأصلي، ليبدأ رحلة طويلة كسائر الطيور التي تقوم برحلتها السنوية، وبعد أن تقضي رحلتها الشاقه البعيدة تؤوب إلى موطنها.. لكنه قد بدأ رحلته منذ زمن بعيد، منذ سبعة وعشرين عامًا..

بدأ رحلة الغربة، وغاص في أعماقها، وهو يؤوب إلى موطنه ولكن ليس كالطيور في كل عام، بل كل أربع سنوات أو خمس ليقضي هناك شهرًا أو شهرين من الزمن ثم يبدأ الرحلة ثانية.. الطيور البرية تحمل معها في رحلتها كل فراخها القادرة على الطيران وهو.. هو لم يحمل معه أحدًا، لم يحمل

حتى زوجه ولم يحمل ولديه.. لم يحمل معه سوى شيء واحد هو شريط ذكريات مهترىء قد أكل الدهر عليه وشرب، شريط قد بهتت فيه كل الألوان وضاعت فيه معالم الوجوه وتضاريسها وطمست فيه الملامح..

باحت عيناه بحزن لا يطاق وحرمان لايرحم وغربة قاتله.. يذكرك شعره الأشيب بالثلوج التي تغطي قمة جبل الشيخ شتاء، وتوحي إليك تجاعيد وجهه

بأنها صورة فوتوغرافية التقطت من طائرة لمنطقة جبلية وعرة.. لقد حفر الزمن في وجهه خطوطًا عميقة تعبر عن كلمات ثلاث: غربة.. حرمان.. شقاء.. تململ في جلسته وهو يسترجع شريط ذكرياته المهترىء متمتمًا:

ـ لا بد أن حياتهم هناك أفضل من حياتي هنا بآلاف المرات.. كنت أرسل لهم نقودًا لا بأس بها كفيلة بأن تجعلهم يتمتعون في حياتهم ويعيشون عيشًا لا بأس به.. وتمنح لولديّ الفرصة في أن يتما تعليمهما.. أما الآن فقد قارب المعين أن ينضب، والنهر أن يجف، فعملي في نهاري كله لا يتعدى بضع ريالات لا تغطي حتى قيمة إيجار مكان العمل.. وشبابي قد



ضاع وقوتي لم تعد كما كانت بالأمس، وقلبي يتمزق حرقة وألمًا.. على ما ألت إليه، فأنا أحس بالضياع أحس كأنني ورقة خريفية مهددة بالسقوط لأقل نسمة تلامسني.. ضاعت الآمال وضاعت الأيام وضاع العمر كل شيء ضاع في حياتي.. حتى حياتي.. المحبة.. الأمان.. الهدوء.. الاستقرار.. الألفه.. الحنان.. كلمات يستعملها الجميع ويعيشونها، أما أنا فلا أعرف سوى سماعها وقراءة رسم أحرفها!.. آه.. لعلي مثل أبي عامر ذلك الراهب الذي نفذت فيه دعوة رسول الله ﷺ بأن يعيش طريدًا ويموت غريبًا.. وها أنذا قد أمضيت حياتي كالطريد وليس مستبعدًا أن أموت هنا غريبًا.. أتوه في دروب النسيان، أغوص في أعماق ظلمة حالكة تلفها سرابيل الغربة القاتلة..

أحس بأن الدم لم يعد يسري في ساقيه من كثرة الجلوس فنهض متثاقلًا وكأنه يحمل نصف العالم فوق وركه، مشى متمايلًا يمنة ويسرة، شعر بإعياء شديد يهد جسده المتآكل فأغلق دكانه ومشى إلى موقف باص ليقله إلى بيته، دخل غرفته وألقى بجسده المضني وبما يحمل من هموم على فراش بالٍ من

الإسـفنج وبدأ يفكر ماذا يعد اليوم لوجبة العشاء وتذكر بأن الأواني التـي تنـاول الطعام فيهـا البارحة لم تغسـل بعد فعليه غسـلها أولًا ثم عليه إعداد الطعـام وترتيب الغرفة وتنظيفها ونظر إلى ثيابه الرخيصة وقال: في نفســه لابد من غسـلها هي الأخـرى فلم يعد يعرف لونها الأصـلي.. ثم قام من مضجعه وغســل إحدى الصحون وفتح علبة (سردين) وجلس يأكل فترى يده تصعد وتهبط إلى إناء الطعام ببطء شديد وهو شارد الذهن واللب..

ويـدأت الأفـكار تتصـارع في رأسـه كأمـواج البحـر في تلاطمهـا وانتقـل بتفكـيره إلى مائـدة بيتـه الصغـيرة وزوجه وولديـه ملتفـين حولهـا والـكل مبتهـج بوجـوده بينهم وهو يحـاول أن يدفق كل ما يختزنه من حنان ولكن هيهات أن تملأ هذه الدفقة من الحنان الهوة الكبيرة التي حفرها البعد..

انتبه من شروده على صوت من أعماقه يؤنبه:

ـ لم كل هذا البعد؟!.. لم هذه الفرقة؟.. ألست بإنسان؟.. أليـس لـك ارتبـاط بإنسـانة وأولاد؟!.. وبأهـل وأصدقـاء

و جـيران؟ أليس لك ارتبـاط بالأرض التي كان فيها مسـقط رأسك؟!..

تخلخلـت أفكاره إزاء هذه الأسـئلة المتلاحقة النابعة من أعماقه.. حاول الأجابة:

ـ أنـا تغربـت وطلبت رزقـي بعيدًا عن بلـدي كي أؤمن لزوجتـي وأولادي حياة هانئةٍ سـعيدةٍ وأجعل تحت أقدامهم أرضيـةٍ صلبة يستطيعون الوقـوف عليها، أنا لم أسـعَ لنفسي فقط وإنما سعيت من أجلهم..

وعـاد الصوت الداخـلي غاضبًا يفتـت أضلاعه ويوقف الدم في عروقه صارخًا:

ـ إنـك إذن تسـعى مـن أجـل أن توفـر المـال لزوجـك وولديـك هذا جميل!.. ومن حقك أن تسـعى هذا السـعي في حـدود المعقول.. تسـعى سـنتين!.. ثلاثًا!.. خمسًـا!.. أما أن تتركهم سـبعًا و عشرين سـنة.. فما هذا السـعي؟!.. هل هذا سـعي أم حـب مـال أم هـروب؟!.. لا بـد أنـه كان في البداية سعي، وانتقل بعدها إلى حبٌ لجمع المال.. صحيح أنك الآن لا تجمع مالًا.. وما تعمل به من أجر قد لا يكفيك لسد الرمق

ولكنـك تجلس الآن منتظرًا تحسُّـن الأحـوال وعودة عصرك الذهبـي في جمع المال.. هل علمتك هذه السـنين التي قضيتها مـن عمرك أن المـال هو كل شيء في الحيـاة؟!.. هل تعلم بأن مـال العـالم كله لا يسـاوي لحظة حـب متبـادل ولحظة عطف وحنان على ولديك اللذين عاشـا شبه يتيمين وزوجتك التي عاشـت شبه أرملة؟.. لماذا كل هذا الشـقاء ولم يبقَ من العمر إلا أقلـه؟.. لماذا المكابرة؟.. ما أبشـع الجشـعَ!.. لقد جعلك عبـدًا للمال مجـردًا من الحب، مجـردًا من العواطف الإنسـانية النبيلة.. محرومًا من أعز شيء في الوجود.. محرومًا من العيش بـين ولديـك وزوجك وأهلـك.. محرومًا من تراب تتمسـك بـه وتنتمي إليـه.. المال ما هو المال يا عبد المال؟.. هو وسـيلة لقضـاء الحاجة ليـس أكثر من ذلك.. جعلتـه هدفك وأفنيت عمـرك من أجله، وليتك بعد كل ذلك حققتَ هذا الهدف!.. لقد ضيعت عمرك سُدىً وهدرًا من أجل المال!..

صاح مضطربًا بأعلى صوته:

ـ كفاك تأنيبًا ولومًا فإنني لن أسـتطيع أن أتحمل أكثر من ذلك!.. هل أنا حقًا عبدٌ للمال؟!..



وقـف منتصبًا عـلى قدمين مرتعشـتين فهـوى منكبًا على فراشـه تجهش شـيخوخته بالبكاء والدمع يتخذ مجراه في تلك الأخاديـد التـي حفرها الزمـن في محياه ويبلل شُـعَيْرات ذقنه البيض!..



٢٨- الصمت

عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، جهزت حقيبة جلدية صغيرة، ورحت ألقي نظرات وداع أخيرة، متلمسًا بعيني كل الوجوه التي تحيط بي، متلمسًا غرف البيت، جدرانه، أثاثه، صورة والدي المرحوم، المعلقة في ركن مهمل من البيت.. أمطرت علي نظرات أمي، تحمل حزنًا عميقًا، وعيون أخوتي الثلاثة، كانت تدور في فلكها محاولة أن تقفز من محاجرها.. الكلمات فوارس قتلى على الشفاه المطبقة، الأسنان تصر كأحجار الرحى..

انهدَّ جبل من الصمت فوق الرؤوس، لم يخرقه سوى صوت خطواتي وأنا أتجه إلى مقعد في الصالة كان بالأمس البعيد مريحًا، ألقيت جسدي عليه، أنتظر انقضاء نصف ساعة من الزمن ليحين موعد مغادرتي البيت، قذفت برأسي إلى مسند المقعد لأريحه من عناء ما يحمل، وغصت في تفكير عنيف، قادني إلى ذلك اليوم الذي تزوجتْ به أمي من فائز، الذي كان يعمل عند أبي رَحِمَهُ اللهُ.. كان فائز هذا يطيع كافة



لأوامـر، ينفذ كل ما يطلب منه، يتظاهر بالمسـكنة والوداعة، إلى أن تـوفي والـدي، فطلق زوجته على حـد زعمه وكان ذاك الزواج المشؤوم..

صـوت صدىء يرتطـم ببلاهة عـلى جـدران البيت، ثم يرتد إلى أسماعنا وكأنه طبول الحرب:

ـ أنا السـيد هنا شـئتم أم أبيتم، ومن يعارضني فسـيلقى مني ما لا يتوقعه، أنتم لي وكل ما تملكون هل تفهمون؟!..

ـ ها!..ماذا؟

ـ ماذا تقول؟..

ـ من الذي جعلك وصيًا علينا؟..

ـ ليـس من حـق أحـد أن يمتلكنا، نحـن خلقنـا أحرارًا وسنعيش أحرارًا..

ـ إنـك غريـب عنا، وليـس لك أي حق علينـا أفهمت يا فائز؟..

أمي بصوت مرتجف قطّعت أوصالَه المفاجأة:

ـ مـا هـذا الـكلام يـا فائـز، عوضًـا عـن أن تكسـب ود الأولاد تريـد أن تأخـذ منهم كل شيء حتى حرياتهم؟.. تريد



إن تخنقهم وهم أحيـاء؟.. أبنائي رضعوا الحرية منذ صغرهم وكبرت فيهم وكبروا فيها، وأنا لا أسمح لك أبدًا أن تعاملهم هذم المعاملة..

ـ اخـرسي.. سـأقطع لسـانك إن سـمعتك تتفوهين بأي كلمة تزعجني أو تثير أبناءك ضدي..

كف لئيم ابتعد عن جسده وهوى ليرتطم على أحب وجه لنـا في هذا العـالم، تناثرت الدمـوع على وجنتـي أمي وماتت الكلـمات لتحيي شـهقة ألم في صدرها الحنون، وترسـم هول مفاجأة في عينيها الحبيبتين..

حقـد تأجـج في صدورنـا، دماؤنـا اندفعـت في عروقنـا مسرعة، وكأنها تحاول أن تجد لها مسربًا لتخرج منه..

انشـلت العقول، ضـاع الإنسـان، اندفعتُ أنـا وأخوتي الأربعة محاولين الوصول إليه وتمزيقه إربًا إربًا..

نعق بومان هما ولداه لزوجته الأولى:

ـ إن تحركتم خطوة أخرى إلى الأمام، أحرقنا بكم وبأمكم البيت..



شممت يومها رائحة (الكيروسين) الذي كانا قد أفرغاه حول البيت، وفي داخل بعض الغرف، شممت الغدر والإرهاب، وصناديق أعواد الثقاب بأيديهم على أهبة الاستعداد، جمد في عروقنا الاندفاع، أصبحنا رجالًا من الجبس، تراجعنا مهزومين، منكسي الرؤوس.. تعالت قهقهات نصر أصمت آذاننا..

صحوت من هذا التفكير على لمسة من يد أحد أخوتي، نظرت إلى عينيه، قرأت ضيقه وإشمئزازه من تلك الحياة التي نحياها، وكأن هاتين العينين راحتا تباركان انفصالي عن البيت، لأعيش حياتي بحرية..

أجَلتُ ناظري على بقية العيون قرأت فيها:

ـ لا ترحل فنحن بحاجة إلى أن تكون أيدينا يدًا واحدة..

ـ ابقَ معنا ولن يدوم الليل!..

ـ يا بُني الصبر الصبر!.. نحن بحاجة إليك..

أغمضت عيني لكي لا أقرأ المزيد فيتأرجح قراري داخل نفسي، ورحت أغوص في تلك الذكريات التي أدت بي إلى قرار الرحيل..



لن أنسى ذلك اليوم الذي أخذ فيه منا كل شيء وحرمنا من كل شيء، فأصبحنا كالعبيد بين يديه، حاولنا أن نتكتل نحن الأخوة وأن نفعل شيئًا من أجل أن يطلِّق أمَّنا ويبعد عنا.. فأحس الذئب بالخطر فعمد إلى كسر رأس حربتنا الأخ الأوسط فأسقطه أمام أعيننا من الشرفة ولفق الأمور أمام الجيران بقوله:

ـ كان ينظر من الشرفة إلى أسفل فشعر بدوار وسقط!..

حاولنا أن نتحرك كرجال بعد قتل أخينا الأوسط، لكن ضربات عنيفة انهالت على رؤوسنا من فائز وابنيه أفقدتنا صوابنا.. فأصبحنا نرى حتى في أحلامنا أعواد الثقاب وصفائح (الكيروسين) والعصا الثقيلة والموت..

ألسنتنا انشدت وهي في كهوفها إلى الخلف بنوابض قاسية، فساد صمت.. وتحركت رجال الجبس لاتلوي على شيء، سوى الخوف والمحافظة على الحياة..

هذا الكرسي اللعين ما باله لم يعد مريحًا، الخدر يسري في ساقيّ، أمي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، ضاربة كفًا بكف.. أقرأ في عينيها أسئلة عتاب:



ـ كيف ستتركنا وترحل؟.. كيف ستتركنا لتلك الأنياب الحادة.. كيف.. كيف؟..

أخوتي يحملق كل منهم بجهة مقطبًا حاجبيه، وكأنه يفكر بمخترع جديد، والصمت يلف الجميع بردائه الأسود.. وصوته الكريه يصفعني، ينغرز في جسدي كنصول الخناجر، أثور داخل نفسي أتمنى لو أكتم هذا الصوت إلى الأبد..

ـ استخدمتموني يوم كان أبوكم حيًا، والآن جاء دوري لأستخدمكم بل وأهينكم كعبيد!.. ما رأيكم؟!..

نوابض الألسن تشدها إلى الوراء تموت الكلمات، تنحني الرؤوس، يغلي الدم ويفور، يسود الصمت، تضيق الصدور، تنتفخ البطون كبالون مطاطي، الجميع حبالى يتمنون الولادة.. يتمنون الإجهاض..

الحقد الدفين، والألم المزروع في النفوس نما وترعرع، ولم تعد تسعه الصدور، ولا حتى البطون، ونوابض ألسنتنا أصبحت صدئة، وهيهات أن ينفرج فم عن بنت شفة.. بل لقد انزلقت ألسنتنا إلى أعماقنا وابتلعناها، وكأننا نبتلع قطعة من زجاج، لكن صوته الأجش الذي يقلب الحق باطلًا،

والباطـل حقًا، وإهاناته لنا لم تنهضـم عند ابتلاعها فانتفخت منهـا البطـون.. أصبحت ابتسـامتنا الذابلة هي الـرد الوحيد عليه وعلى كافة ضغوطه، صرنا نرسم الابتسامة، ونحاول أن نظهرها على أنها ابتسامة صافية، ونخلي وجوهنا من أي تعبير ينم عن الاستياء، ونتجرع سم إهاناته وضغوطه ليفعل داخل نفوسـنا ما يفعل.. أأصبحنا نجيد التمثيل؟.. أأصبحنا نجيد التقيـة؟.. أبـركان داخل الصدور، وابتسـامة عـلى الوجوه.. كيف ذلك؟.. كيف؟.. كيف؟..

عقارب الساعة تشير إلى التاسعة إلا بضع دقائق، جرس الباب يقرع، الصديق المنتظر يدخل موجهًا كلامه لي:

ـ الغرفة التي أردتني أن أستأجرها لك أصبحت جاهزة، هاك مفتاحها!..

حملت حقيبتـي الجلدية الصغيرة، رفعـت رأسي فالتقت نظرتي بسـيل مـن النظرات التـي لم أحاول ترجمـة شيء منها، فتحـت الأفـواه لتنطـق بكلمـة وداع، لكن النوابـض صدئة والألسـنة قـد ابتلعـت.. آثـرت الإسراع بالخـروج وأغلقت الباب خلفي.. وتركت الصمت في البيت هو السيد.. متطلعًا للعودة يومًا ما..



٢٩- الكَرّاج
(أو الحصان البشري)

توقف عن الجر وهو يتصبب عرقًا، رفع كم قميصه الممزق ليجفف ولو قليلًا من سيل العرق المنهمر باتجاه عينيه، ناسيًا أن قميصه يعتصر عرقًا أكثر من جبهته.. أسبل يده ليركيها على طرف عربته الخشبية (الكرَّاجة) التي تسير بثلاث عجلات هو أحدها، فبانت عروقها منتفخة وكأنها موشكة على الانفجار كعروق جبهته التي تتدافع باتجاه الخارج لتسابق عينيه في الجحوظ وقلبه في الخفقان..

طعن الإنسان في داخلي حتى غاص في بحر من الدماء إثر هذا المنظر الذي يحل فيه الإنسان مكان الحيوان الذي سخره الله لنا لنستخدمه في عمليات الجر هذه، فعشرون صندوقًا من الفاكهة قد يتلكأ الحيوان عن جرها فنرأف به، وإنساننا هذا بعيد عن كل رأفة.. طار صوابي، تسمرت عيناي وأنا أرقب رجليه النحيلتين المشمرتين حتى الركبة، تتراقصان تحته من شدة التعب وكأنهما موضوعتان تحت تأثير تيار كهربائي..

ثار في داخلي الإنسان، بالرغم من اعتقادي المطلق بأن العمل شريف بذاته، ولكن هذا العمل فوق الطاقة الجسدية للإنسان وانتقاص لمكانته كإنسان سُخِّر له كل ما في هذا الكون ليكون في خدمته.. بدأت يده تتلمس حزامًا جلديًا ثخينًا مثبتًا على العربة لتضعه على الكتف الأيمن بصورة صحيحة، تململ جسده النحيل تحت ثقل العربة المكتظة بصناديق الفاكهة، ندت عنه صيحة مخنوقة من شدة التعب:

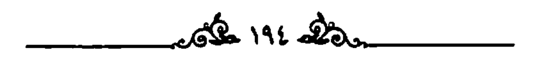
- دفشة يا شباب!.. على حب النبي دفشة!..

ولم يتحرك دولابا العربة حتى كادت عينا المحرك أن تخرجا من محجريهما، وانطلقت العربة تسير ببطء شديد وصوت مرهق لاهث يتابع مسيرتها:

- اوعَا!.. اوعَا يا أخونا!..

وآلاف العيون المتحجرة على جنبات الطريق لا تهتم بشيء..





٣٠- أنــا وهــو

ـ أنـا محمـد الحلبـي، أحمـل بطاقة شـخصية بهذا الاسـم وكذلـك بطاقة عائلية سـجل بها العديد مـن الأولاد الذكور والإنـاث.. من الغريب في الآونـة الأخيرة أنني عندما وقفت أمـام مرآة نفسي، وجدت نفسي اثنـين، بنفس الملامح، بنفس الوجه.. نفس الجسـم لكن الحشـوة الداخلية مختلفة، أناقشـه فيناقشـني يحمل أفـكارًا غير أفـكاري وروحًا غـير روحـي.. سـألته: مـن أنت؟ قال: أنا أنت!.. دهشـت لهـذه الإجابة!.. أخذت نفسًـا عميقًا لأغذي مخي بمزيد من الأوكسـجين كي أستوعب الموقف!.. كيف أنت أنا؟.. وأنـا أنت؟.. دار بيننا نقـاش طويل وحـاد.. لم نلتـقِ بوجهـة نظر واحدة.. شـكله الخارجي نفس شـكلي، لكن المضمـون مختلف تمامًا!.. هالني ما رأيت!.. فالتجأت إليك..

الطبيب:

بسيطة!.. بسيطة!.. حالتك هذه قريبة من مرض انفصام الشخصية..

محمد:

– وهل هذا المرض خطير؟..

ـ لا تخف فالعلاج النفسي اليوم متطور جدًا وعلاجك بسيط.. استلقِ على ظهرك، خذ نفسًا عميقًا.. أغمض عينيك، أريد أن أعرف كل شيء عن حياتك، حدثني وأنت مسترخ تمامًا، دع لاشعورك يفضي بكل ما بداخله..

ـ انتحرت الأيام يومًا بعد يوم، ومضى العمر سريعًا، أوراق الخريف صفراء تعصف بها الرياح، يمشي الدم كنهر هرم، العواطف فقدت حرارتها وأصبحت بضاعة قديمة، الكلمات اهترأت وحروفها لم تعد تحمل معانيها، الحياة مملة رتيبة يسري في عروقها برد كانون ويغطيها ثلج آذار، كل الأيام متشابهة ذات ملامح واحدة..

ـ ماذا تقول؟.. ما علاقة كلامك بموضوعنا؟.. قلت لك حدثني عن نفسك.. أجل عن نفسك فقط!..

ـ آه!.. عن نفسي أنا.. أنا من أنا؟.. تريد أن أحدثك عن أنا أم عن هو؟..

ـ أوه!.. أرجوك ركّز أفكارك وحدثني عن حياتك أنت..

ـ حياتي أنا!.. لقد عشت طفولة هنيئة، أحببت فيها الطبيعة بوردها وزهرها وخضرة بساطها، عشت حالمًا مع فراشها، أهوِّم في بساتينها، أرتشف الجمال وأجنيه كما يجني النحل رحيق الزهر.. اصطبغت نفسي بصفاء الطبيعة ونقائها فغرست بي رقتها وعذوبة ألحان عصافيرها، فأصبحت نفسي شفافة كقطرة ندى في صباح يوم ربيعي، أحببت البساطة، أحببت العطاء، أحببت الصدق، كرهت التكلف والتعقيد والغش.. هل من الضروري أن أتكلم كل شيء عن حياتي؟..

الطبيب:

– أجل!.. أجل.. تابع!.. أريد أن أعرف كل شيء حتى أستطيع تشخيص حالتك بشكل جيد..

ـ تلك كانت جذوري التي منها استمدَدْتُ الحياة وابتدأتُ رحلة العمر.. أبحرت بقاربي الصغير، أمخر عباب هذا العالم وأخوض غمار الحياة، تصقلني التجارب وتعلمني

الأيام.. أبحـرت وليتني لم أبحر!.. ليتني بقيت طفلًا، أعيش مع الطبيعة بصفائها ونقائها، أتفيأ بوارف ظلها وأستحم بنور شمسها..

الطبيب:

- لماذا هذا الهروب؟.. لماذا تتمنى أنك لم تبحر؟

- أرجـوك ألا تقاطعنـي.. آه لقد ذكرتني بإنسـانة عزيزة على قلبـي، تهوى المقاطعة، ليس هذا فحسـب بل إنها تنقلك من موضوع إلى آخر بسرعة البرق من غير أن تدري بنفسك، آه إنها إنسانة ذكية لماحة..

- وهل ستظل تحدثني عنها؟ رجاءً ارجع إلى الحديث عن نفسك..

- لا بـأس.. لا بـأس.. عندمـا أبحـرت رأيـت العجـب العُجاب كما في حكايا (ألف ليلة وليلة)، رأيت اللون الأبيض الذي أعرفه ورأيت الأسود الذي أمقته.. والأعجب من ذلك أن هناك لونًا رماديًـا.. تصور؟!.. رماديًا.. أليس هذا مما يثير الاشمئزاز والقرف.. رماديًا!..

فترة من الصمت، فرك جبينه ثم تابع:

رأيت السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة، رأيت القطة الوديعة تأكل أبناءها، رأيت اللبوة المفترسة تكشر عن أنيابها لتحمي صغارها، رأيت أشجار السنديان، رأيت اللبلاب.. رأيت.. رأيت.. ما أشبه الحياة بقطعة النقود.. رأيت وجهها الآخر!.. حزنت نفسي داخل نفسي.. فتشت عن الإنسان.. أجل فتشت عن الإنسان.. هل ضاع؟.. هل تلاشى كما يتلاشى زبد البحر؟.. آه لم أنسَك أيها الفيلسوف يوم حملت فانوسك في وضح النهار، ومشيت فسألوك لماذا تحمل هذا الفانوس وعمّ تبحث؟.. قلت يومها كلمات خالدات، قلت: إنني أبحث عن الإنسان!.. بحثت أنت وبحثت أنا ياسيدي، وجدت قلة نادرة نستطيع أن نطلق عليها كلمة إنسان!.. من بين الملايين الذين لا أعرف ماذا أسميهم.. حملت الإنسان بين ضلوعي في شراييني في كياني!.. أداريه أرعاه كما ترعى الأم وليدها.. أجل يا سيدي عشت كإنسان، حققت الإنسانية داخلي، حاولت أن أزرعها في المحيط حولي.. نجحت حينًا، وفشلت أحيانًا..

الطبيب:

- جميـل.. جميل جدًا بدأت أفهمك الآن.. أفهمك تمامًا، إذا تعبت فبإمكاننا أن نتابع في جلسة أخرى..

ـ لا.. لا.. لم أتعـب بـل عـلى العكـس فأنـا مرتـاح جدًا لأنني أفضي إليك بما يعتمل داخلي، وأرجوك للمرة الثانية ألا تقاطعني..

ـ حسنًا.. تابع.. فأنا مصغٍ إليك..

ـ حملـت الإنسـان داخـلي ياسـيدي وتابعـت إبحـاري، كان قـاربي صغـيرًا وشراعـه كبـيرًا جـدًا.. تقاذفتنـي الأنواء والأعاصـير فوجهتنـي وجهـات كثيرة عشـت المـد والجزر، سـلكت فجاجًـا صعبـة ودروبًا سـهلة، ضعت في مسـالكها وفي شـعابها، مشيت شرقًا وغربًا، وأخيرًا وجدت طريقي إلى اليابسـة، إلى الأرض التي كنت أعتقد أنها صلبة تحت أقدامي ولن تهتز أبدًا.. نسـيت أو تناسيت أن داخل كل نفس إنسانية توجـد زلازل.. بل توجد براكين تذيب أقسـى الصخور، فما بالك بقلب كقلبي.. عشر سنوات وأنا أقف على هذه الأرض التي اعتقدت أنها صلبة، عشر سـنوات لم تسـتطع الأهواء أن

تتلاعب بي أو تنال مني، كشجرة سنديان جذورها راسخة في الأرض وفروعها في السماء.. أما الآن؟!..

صمت محمد فترة طويلة وهو يحدق باتجاه واحد وكأنه يتأمل لوحة فنية ساحرة، الطبيب جلس صامتًا خوفًا من أن يقطع له سلسلة أفكاره.. فرك محمد جبينه وكأنه يستجمع أفكاره، نظر إلى الطبيب نظرةً فاحصة وسأله:

ـ بالله عليك هل وصلت إلى تشخيصِ مرَضي وسببِ عِلَّتي؟..

ـ حتى الآن أستطيع أن أجزم أن تركيبك النفسي سليم وليس فيه عيب أو خلل، ولكن تابع.. أخبرني عن كل ما تشعر به..

ـ حسنًا سأتابع.. صحوتُ منذ أيام قلائل على شيء ما يتفجر داخلي، ينبوع رقراق يفيض بمشاعر رقيقة دافئة، نسيها قلبي منذ زمن ليس بالقصير، شعرت بأن الأيام بات لها معنى، ولم تعد الرياح تعصف بها إلى بئر النسيان، بات كل يوم له طعم ومذاق خاص به، تصور أيها الطبيب أنه أصبح لكل يوم شخصية.. أجل شخصية قائمة بذاتها.. مثلنا نحن..



فيـوم الأحد غير يوم الخميس.. غير يوم الجمعة.. النهر الهرم الـذي كان يترنـح في عروقي أصبح نهرًا جارفًـا جبارًا.. أعاد الربيـع إلى كيـاني، ببراعمـه النابضة بالحيـاة، بأزهـاره الملونة وفراشه الحالم فاتقدت العاطفة بعد برودها وازدانت الأحرف فأصبح للكلمات معنى وللتنهيدات معانٍ..

صمـت محمد هنيهـة وأردف قائـلًا: هـل لي بفنجان من القهوة..

ـ أجـل.. أجـل.. عنـدي قهوة جاهـزة ولكـن أرجو أن تـشرح لي أكثـر عن هـذا الينبوع الـذي تفجر داخلـك فإنني أرى أن هذه النقطة هامة في موضوعنا، ويجب أن نلقي عليها الضوء بشكل جيد.. هاك فنجان القهوة..

رشف من الفنجان رشفة صغيرة وقال في نفسه هذا البن مـن النوع الـرديء.. البن الجيد سـعر الكيلـو أربعمائة ليرة.. لكـن لا بأس لعـل القهوة تنشـط ذاكرتي فأسـتطيع أن أشرح للطبيب عـما يعتلج بداخلي ليتمكن مـن أن يخلصني من هذه الازدواجية التي أعيشها..

ـ ماذا بك؟.. أراك قد طال صمتك؟!.. أرجو أن تكمل..

ـ آه.. لا بأس.. لا أعرف من أين أبدأ.. بل لا أعرف كيف بدأ.. أجل لقد بدأ.. أعرف عوارضه كما يعرف الطبيب الحاذق عوارض مرض مريضه.. أجل إنه هو.. شرود دائب، تفكير مستمر، شيء ما يعشّش في القلب فتعزف نبضاته سمفونية الخلود.. تيار شوق جارف.. انطواء على الذات.. اتخاذ ركن هادىء لئلا تقطع لذة التفكير بالمحبوب.. من المؤكد أنه الحب.. أجل إني أعرفه إنه الحب.. ولكن هل هو جميل ولذيذ دائمًا؟.. هل هو وصال للمحبوب وإرواء ظمأ باللقاء؟.. أم هو في بعض الأحيان أرق وسهاد ونار تكوي الفؤاد.. قلت بدأ ولا أعرف كيف بدأ!.. وكأنني كنت أبنيه أنا وهي لبنة لبنة، حتى أصبح هرَمًا شامخًا من غير أن ندري.. منذ سنوات عرفتها وعرفتني معرفة خاطفة، لم نكن ندري أننا في يوم من الأيام سنكون صيدين ثمينين في شِباك الحب.. يقولون إن الحب أحيانًا يحصل من أول نظرة.. ولكن حبي وحبها نما كما تنمو شتلة ورد صغيرة، ففي كل يوم تكبر وتكبر.. كبرت

دون أن ندري.. لم نصحُ إلا وقد أصبحت شجرة ورد كبيرة يفوح شذاها فيعبق عطرها في قلبينا.. سمونا في سماء هذا الحب، غردنا مع بلابله، رفرفنا مع عصافيره، تراقص قلبانا على نغمات ناي مجنون، رشفنا رحيقًا ألذ من اللذة وأبحرنا بقارب الشوق داخل العيون..

ـ الله ما هذا هل أنت شاعر؟..

ـ لا.. لست شاعرًا ولا أجيد الشعر، بل أنا إنسان..

ـ في كل الأحوال كل ما تحدثتَ به شيء جميل جدًا والحب الذي تتحدث عنه هو من أنبل وأرق العواطف الإنسانية، وأجمل شيء في هذه الدنيا، فمن غير الحب لا معنى للحياة أبدًا..

قام محمد عن الكرسي بغضب وقال للطبيب:

– أضيء النور فإني لاأحب الظلام ولا مايجري تحت ستاره.. إن الذي كان يتكلم معك عن الحب إنه هو وليس أنا..

دهش الطبيب وألقى على محمد نظرات فاحصة علَّه يتعرف على سبب ثورته المفاجئة، ويتعرف على مكمن الازدواجية في هذه الشخصية التي أمامه.. فبادره قائلًا:

- مـا بك؟.. لِمَ هذا الغضـب؟.. منذ قليل كنت تتحدث برقـة وعذوبة ما الذي أصابك؟!.. ولمـاذا تقول إنه هو الذي كان يتحدث عن الحب وليس أنت؟.. قل لي من هو؟..

كظم محمد غيظه وبدا عليه هدوء أعصاب نوعي.. وضع يده على جبهته، فبدا كمفكر مستغرق في التفكير، يحاول حل معضلـة من معضـلات هذا الكـون.. طال صمتـه والطبيب ينظر إليه متأملًا..

رفع رأسه أخيرًا وأردف قائلًا:

- كنـتَ تتحـدث أنت وهـو عن الحب وقـد أثنيت أنت على حبه..

الطبيب:

- تقول هو فمن هو؟..

محمد:

- ألم تعـرف حتى الآن من هـو؟!.. إنه محمد الثاني الذي كلمتك عنه في البداية..

الطبيب:

- آه.. لقد فهمت عليك.. أنت إذن محمد الأول وهو محمد الثاني.. أكمل!..

محمد:

- أجل بالضبط!.. دعنا الآن نعمل العقل فيما كنتما تتحدثان فيه عن الحب.. أنا معك أن الحب هو شعور نبيل ورقيق بين اثنين.. ولكن أي اثنين؟.. هل نسيت أيها الطبيب أنني قلت لك في بداية الجلسة أن هناك بطاقة عائلية سُجِّل فيها اسمُ زوجةٍ وأسماءُ أولادٍ ذكور وإناث؟.. وهل تدري أن الحبيبة أيضًا لها بطاقة عائلية سجل فيها عدد من الذكور والإناث.. أي حبٍّ هذا الذي تتكلمان عنه؟.. وكيف لهذا الحب أن يثبت نفسه على أرض الواقع؟.. هل هذا هو الحب السامي النبيل؟!.. قل لي أيها الطبيب؟..

الطبيب:

- ها!.. ها!..

محمد:

- أرى الارتباك باديًا عليك!.. ألم تجد جوابًا؟.. أتعرف أيها الطبيب أن أفكار هذه الحبيبة واضحة وضوح الشمس

ـ أنها أذكى منك وأعرف بمكمن الداء.. هل تعرف بماذا وصفت هذا الحب؟.. لقد وصفته يومًا بالأنانية.. أجل بالحب الأناني.. أما الحب الحقيقي كما هو معروف فليس كذلك بالطبع، إنه التضحية والعطاء والسمو أحيانًا فوق النفس الإنسانية، هكذا كانت تقول.. أما هذه الحالة فقد وصفتها أيضًا بالخيانة.. أجل بالخيانة الزوجية.. الحياة الزوجية كما هو معروف أيضًا عهد ووفاء.. إذن هذا هو التناقض بعينه.. كيف لك أن تعيش في قمة جبل وفي واد عميق في وقت واحد؟!.. كيف لك أن تسمو بفكرك إلى عَنان السماء ورجلاك تغوصان في الوحل؟!.. كيف؟.. كيف؟.. ألف سؤال وسؤال.. آه!.. أراك لاتجيب ما بك أيها الطبيب؟ ألا تستطيع أن تخلصني من هذه الازدواجية؟..

الطبيب:

- ها!..

وأطرق الطبيب مفكرًا، وقد عقد ما بين حاجبيه، فبدا وجهه وكأنه يريد أن يجهش بالبكاء..

محمد:

- ما بك؟.. أرى أنك لا تفقه شيئًا في الطب النفسي.. اخلع هذا المعطف الأبيض!.. سأرتديه أنا.. تمدَّد على هذا الكرسي.. خذ نفسًا عميقًا.. أغمض عينيك.. حدثني عن حياتك وأنت مسترخٍ استرخاءً تامًا!.. أنت مريض بمرض يدعى الاكتئاب النفسي، لاتخف سأعالجك ولكن الآن أرجو أن تسمح لي بمغادرة هذه العيادة وهذا الضوء الخافت إلى النور.. إلى الشمس.. إلى الحياة.. فالورد لا يحيا في الظلام..

ترك محمد العيادة وانطلق خارجًا وهو يصيح بأعلى صوته:

- إلى النور إلى الشمس.. إلى الهواء الطلق.. فأنا وهي نعرف حق المعرفة أن الورد لا يحيا في الظلا م!..



٣١- حمار أبي نواس

في يوم من الأيام صحا حمار أبي نواس باكرًا، ومرَّغ نفسه على أرض الحظيرة، كأنه يعلن ولاءه لهذه الأرض وحبه لها..

لكنه وعلى غير العادة، في هذا اليوم راح يفكر بوضعه وما يقاسيه بحياته وكيف أنه محتقر ومهان ولا شأن له ولا قيمة وأنه مهدد دائمًا بالقتل والتشريد واحتلال مرعاه ونهب عشبه، ومهدد بأية لحظة بأن تقع فوق رأسه قذيفة تمزقه إلى أشلاء متناثرة من غير أن ينهق عليه أحد في هذا العالم، فالقذائف لا تفرق بين بني البشر وبين بني الحمير.. راح يندب حظه العاثر لأنه ولد في إحدى الدول الصغيرة، وليس له خيار في ذلك، وهي دول مستضعفة كتب عليها أن تبقى في نضال دائم للمحافظة على الحياة والحرية، ومهددة دائمًا من قِبَل القوي المستعمر صاحب البطن الكبير الذي يريد أن يأكل كل شيء وحده، وأن يكون هو السيد الأوحد..

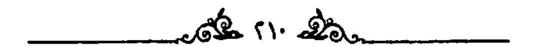
تحسَّر لأنه لم يولد في إحدى الدول الغنية القوية، فإخوانه الحمير هناك آمنون مطمئنون ليس لديهم همٌّ كفاح ولا نضال

من أجل الحياة والحرية والكرامة المنهوبة، بل لهم جمعية خاصة تهتم بشؤونهم وتدعو للرفق بهم وتدافع عنهم وترعاهم، وهم يعيشون عيشًا كريمًا يليق بهم كحمير، بل ربما خامرت هؤلاء الحمير بعض الهواجس أحيانًا في توسيع رقعة مراعيهم على حساب مراعي العالم الثالث عشر..

أرقه هذا التفكير وعكّر مزاجه، وتمنى لو أنه لم يفكر، ولم يجهد نفسه وعقله فيه.. لكن ما سرَّى عنه قليلًا أنه ليس حمير العراق وحدهم الذين يعانون بل هناك إخوانه الحمير في أفغانستان والصومال والسودان وفلسطين ولبنان وفي بقاع كثيرة من هذا العالم..

سمع نحنحة صاحبه أبي نواس، نهض عن الأرض وهيأ نفسه كي يمتطي صاحبه ظهره.. أطل من الحظيرة فرأى أحد الغرباء المعتدين يمتطي ظهر أبي نواس الذي يئن تحت حمله الثقيل وهو يقول:

- لابد أنني سألقي بك عن ظهري يومًا أيها الغريب المحتل، وسأرفسك بكلتا قدمي، وسأعود حرًا كما ولدت!..



أغلب أبناء عشـيرة أبي نواس كانوا ينظرون بعيون ميتة إلى ما حل بابن عشيرتهم..

إزاء هـذا المنظر نهق الحمار نهيقًا متواصلًا وعاليًا، عنى به شيئًا ما، وعاد ليمرغ نفسه بتراب الحظيرة..

٣٢- دموع قمر

ـ ألو.. هيام!..

وغاص الصوت إلى الأعماق، انتحر قبل أن يصل إلى الشفاه..

ـ من؟.. من؟.. من المتكلم؟..

صوت نحيب يقطع نياط القلب.. الكلمات الخرْس سجينة تحاول أن تتحرر، أن تنطلق في الأثير راعدة مدوية، الدموع تنهمر غزيرة كأمطار نيسان، تسيل على الخدود كماء صُبّ على سطح زجاجي أملس..

ـ من المتكلم؟.. أرجوك تكلمي.. من؟..

ـ هيام.. هيام.. أنا قمر..

ـ ألو قمر ما بك؟.. أرجوك تكلمي.. ما بك؟.. ماذا حصل؟.. هل حصل لك مكروه؟.. قمر.. قمر.. تكلمي!..

ـ لقد أعادوني لزوجي!..

صمت يشبه ظلام ليل دامس في كهف عميق الأغوار..



صمت وهدوء، يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة..

ـ أعادوك لزوجك.. أوه!.. أيتها المسكينة كم أرثي لحالك، ومن أرغمك على العودة؟..

ـ تسألين من أرغمني!.. ألا تعرفين؟.. إنها العائلة الكريمة.. الوالد والوالدة والأخوة الأعزاء الذين يخافون على ابنتهم وأختهم ويرعونها كالطفل الوليد.. إنهم يحبونني.. آه يا هيام إنهم يحبونني كثيرًا أنا ابنتهم الوحيدة، يحبونني كما يحب الدب صاحبه.. أجل أنا الابنة الوحيدة المدللة.. عاطفة الأبوة والأمومة والرابطة الأخوية البارحة تجلت بأجمل وأبهى صورها.. كيف لا وهم يعرفون مصلحتي أكثر مني وأنا ابنة الثلاثين عامًا، ويعيدونني إلى السجن الذي قضيت فيه سنين جُدْبًا جافة أقاسي البؤس والحرمان والانتظار.. وما أصعب الانتظار!.. هل جربته؟ هل جربته يا هيام؟..

بدأت الحياة تدب في صوتها الذي راح يتفجر كبركان ثائر لا يبقي ولا يذر.. كانت ناقمة على كل شيء.. على أبيها، على أمها، على نفسها على أخوتها على ظروفها، تريد أن تهرب من كل شيء إلى اللاشيء، مع أن مطلبها في هذه الحياة بسيط

جـدًا تريد فقط أن تحيا كإنسـانة تُحاط بالمودة والحب، تريد أن تتنفـس هواء الحرية مـلء رئتيها.. لكن أتـون الحرب الدائرة ورائحة الجشع والطمع كانت تزكم أنوف الجميع..

الـزوج خليجي الجنسـية، معطـر برائحة النفـط الزكية، يملك المال، يشـتري به الأجساد التي يريد.. يتجول في سوق النخاسـة، يتجول في سـوق العبيد، ينتقي البضاعـة، يقلِّبها، يتفحَّصهـا، هل هـي صالحة للـ..، يشـتري، يدفـع، يمتلك، يحمل في جيبه تصريحًا بأن هذه المرأة هي زوجته، ملكه الخاص يأتيها وقت يشاء ويغيب عنها وقت يشاء..

هـي قطعـة أثـاث جميلـة أُودعـت منْزلًا يشـبه السـجن الانفـرادي مُلِيئ بالوحـدة والانتظار والفـراغ القاتل.. تاقت للألفة الزوجية، تاقت للسكن، تاقت للمودة والرحمة.. لكن منْزلهـا هذا كان بعيدًا كل البعد عـن البيت الزوجي المتعارف عليه عند الجميع.. كان بيتًا لتفريغ غريزته الحيوانية فقط.. وما إن ينتهي من تفريغ هذه الشحنة خلال أيام قليلة حتى ينطلق إلى بلـده، تاركًا قطعة الأثـاث الجميلة تئن تحت وطأة الوحدة والفراغ والانتظـار القاتل.. وكأن قطعة الأثاث هذه ليس لها

قلب، ليس لها أحاسيس، ليس لها مشاعر.. هل من المعقول أن تكون العاطفة قد انتزعت من قلبها؟.. هل انتحرت شفافية المرأة داخلها؟.. هل باتت بالفعل جمادًا لا تحس ولا تشعر، لا تحب ولا تكره.. قطعة أثاث مرمية في زوايا النسيان، يكشف الغطاء عنها كل خمسة أشهر أو ستة لليالٍ معدودات ثم يعود ليسدل عليها أشهرًا طوالًا طوالًا..

يومًا بعد يوم راح هذا الزوج المحترم ينسى أو يتناسى أن هناك قطعة أثاث جميلة مرمية في منْزل يبعد آلاف الكيلو مترات، فأطال الغياب وأطال..

أكدت له العديد من المرات عبر الهاتف أن هذا التجاهل وهذا البعد إنما يطحنها يفتتها إلى أشلاء.. أكدت له أنها إنسانة لها عواطفها، لها مشاعرها، لها أحاسيسها ولا يمكن أن تعامل هكذا على أنها جماد لا يتغير ولا يتبدل.. نادته العديد من المرات قائلة:

- أريد رجلًا.. أريد زوجًا.. لاأستطيع أن أتحمل الحياة هكذا وحدي.. لا أستطيع أن أعيش وحدي في غابة هذه

الحيـاة.. ألا تخـاف أن أكون فريسـة وحش مـن وحوش هذه الغابة؟.. أليس عندك نخوة؟.. ألا تغار علي؟..

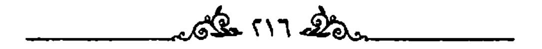
ألا؟.. ألا؟..

تضيع الكلمات في الأثير وليس هناك من مجيب..

التقت العينان.. تحرك شيء ما في الداخل.. طيف ابتسامة ارتسـم على طرفي الشفاه لجارٍ لها، شابٌ عَزَبٌ، وسيم المحيا، ابن عائلة معروفة، أصغر منها بسنتين..

راحت تحدث نفسها:

ـ آهٍ مـا الـذي جـرى لي!.. كيف أبتسـم لـه؟.. ولماذا؟.. يا الله!.. ما الذي جعل عينيَّ تتسـمران على عينيه؟!.. ما هذا الخفقـان الذي خالج قلبـي؟!.. أوصالي كلهـا ترتعد، لم أعد أسـتطيع أن أسـيطر عـلى أعضائي!.. أحـسُّ وكأن كل عضو من جسـدي سيسافر باتجاه ما باحثًا عن شيء ما.. لا أدري ما كنهـه.. أيكون البحث عن الصـدر الدافئ؟.. عن الأمان؟.. عن الحب؟ عن العشرة.. عن الاستقرار؟ عن الحياة الكريمة التـي تليق ببني البـشر؟.. آه يا إلهي!.. ولكـن كيف هذا وأنا امرأة متزوجة؟ متزوجة؟!.. متزوجة على الورق فقط، وهناك



ورقة في جيب ذاك الغائب تقول إنني زوج له.. لكن أمعقول أن أخونـه ولو بنظرة؟ وأنا التي حفظتـه في غيابه الطويل لمدة عامين كاملين وأكثر لم أر وجهه وأنا أعاني وأعاني..

صراع داخـلي مرير بين المـادة والروح، هل من الواجب عليها أن تبقى واقفة في محطة الانتظار؟.. تنظر بعينين بلهاوين باردتـين إلى المجهول.. تنتظر قادمًـا قد أضاع العنوان وركب قطارًا يتجه بـه إلى أفق بعيد مجهول..إلى متى هذا الانتظار؟.. إلى متى تسـتطيع أن تكبـت هذا الغليان الداخـلي؟.. إلى متى تستطيع أن تدفن أنوثتها في قبر مهجور؟.. وهي الجميلة التي يتمناها أغلب الرجال؟!..

إلى متى ستظل تائهة في بحر من النسيان؟.. إلى متى ستظل تسـبح باتجاه المجهـول؟.. قطار العمر يمـر سريعًا ووريقات الأيام تتسـاقط صفراء شـاحبة تنذر بقدوم الخريف.. خريف العمر الذي تخشـاه كل امرأة.. وقبل أن يأتي هذا الخريف هل عليها أن تطرق بابًا آخر للحياة كي تعيش كما يليق لإنسان أن يعيش؟..

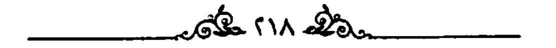


براكين ثائرة داخل هذه النفس الإنسانية الشفافة، ضمير يحاسب.. يؤنب.. يوجه.. ولكن إلى متى هـذا الانتظار؟.. آن لقطعة الأثاث أن تتحرك من مكانها المظلم.. آن لها أن تنطلق إلى النور.. إلى الشمس.. إلى الحياة لتعيش كما أراد لها الخالق..

تلاقت النظرات مرات ومرات، ودق القلبان يعزفان لحن الخلود.. لحن الحب، وكان اللقاء.. واللقاء.. وكانت في كل مرة تعود إلى نفسها مؤنبة زاجرة:

ـ كيف لي أن أجتمع به وأنا امرأة متزوجة؟.. متزوجة؟!.. آه متزوجة مع وقف التنفيذ!.. لكن ما فائدة هذا الحب الذي لا رجاء فيه بالوصال.. لقد زاد عذابي.. بعد أن كان عذابًا واحدًا أصبح عذابين، وهذا العذاب الأخير أمر وأدهى، فكيف لي أن أستطيع الاحتمال؟.. آه إنه يحاول أن يخفف عني، فيبذل كل ما عنده من رقة وشفافية لإسعادي، يحاول أن يكون الصدر الحاني الذي يحمل عني جميع آلامي وأحزاني، وأخيرًا سمعته يقول بصوت جاد كل الجدية:

ـ لماذا لا تسعين إلى الطلاق؟..



ـ آه.. ماذا؟..

ـ أقول لماذا لا تسعين إلى الطلاق، ونكون زوجين شرعيين على سنة الله ورسوله؟..

ـ آه كم أتمنى ذلك!..

ـ لقد مضى على غياب زوجك سنتين كاملتين، وبإمكانك أن ترفعي دعوى تفريق، ومن المؤكد أنك ستربحينها.. وأنا سأكون بجانبك، واقفًا معك حتى تحصلي على حريتك المفقودة.. حينئذ يا حبيبتي سنكون إن شاء الله أسعد زوجين في هذا العالم..

ـ لكنك أصغر مني سنًا بعدد من السنين، وأنت شاب عَزَب لم تخض غمار زواج بعد، وأنا امرأة متزوجة، فما هو موقف عائلتك؟..

ـ ما دام هذا الحب الصافي النظيف قد جمع بين قلبينا، فلن تكون هناك عوائق إن شاء الله..

كان لهما ما أرادا، فقد رفعت دعوى تفريق وربحت الدعوى وصدر الحكم لصالحها..



أخيرًا فتح باب القفص وخرجت السجينة ترتدي رداء الحرية الذي طالما افتقدته.. راحت تقفز على الأرض قفزًا، تريد أن تركض.. أن تلعب.. أن تطير إلى السماء.. أن تقف في النور.. أن تقرأ الفرحة في كل الوجوه شاعرة أن العالم بأجمعه يشاركها فرحتها.. تريد أن تتلقى التهاني من الجميع وهم يباركون خروجها من السجن لتوها.. تريد أن تضحك.. أن تبكي من الفرح، بل إنها لا تدري ماذا تفعل، فقد كانت الفرحة أكبر من أن يسعها قلبها المرهق من الأسر.. فانتابتها موجة ضحك هستيرية لفتت إليها جميع الأنظار.. لكنها لم تبال فالكل حسب تصورها يشاركها فرحتها، يبارك بنظراته خلاصها من الأسر..

تأبطت ذراعه بنشوة وفرح، وراحا يمنيان النفس باللقاء تحت سقف واحد ويعدان العدة لإنشاء بيت الزوجية الجديد..

هذا الخبر كان له وقع الصاعقة على أهلها، فكيف لها أن ترفع دعوى وتتخلص من زوجها؟.. رغم أنه يرسل لها

صروفها ولم يتركها في حاجة إلى شيء على حد قولهم.. فهي تأكل ما تريد وتلبس ما تريد، فماذا تريد غير ذلك؟!..

سألوا أنفسهم ماذا تريد غير ذلك لكنهم لم يجيبوا.. وتعاموا عن مقولة (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)، اتخذوا المواقف وهاجموها وحاربوها حربًا لا هوادة فيها، ثم راحوا يترددون في قبول الخطيب الجديد الذي يصغر ابنتهم بعدد من السنين وخاصة بعد أن علما بتردي وضعه المالي.. فكيف لهم أن يتركوا صاحب الأموال ويرضوا بهذا الإنسان العادي جدًا؟!..

في هذه الفترة وصل من الخليج القطار التائه، حاملًا الزوج المطلّق ليحط رحله في بيت أهلها.. استقبله الجميع بصدر رحب، هشوا وبشوا لقدومه وخاصة أنه محمل بالهدايا والعطايا..

حين سأل عن زوجته، حاولوا إدخالها، لكنها رفضت الدخول وقالت:

- هو غريب عني الآن ولا تجمعني به أية صلة!..



رفضت الدخول مرارًا وتكرارًا، لكنهم في النهاية أجبروها على الدخول والدموع تجري على خديها فجلست حزينة كسيرة مهيضة الجناح لا تنبس ببنت شفة..

قالت الأم محاولة تلطيف الجو:

ـ أبو جلال.. ضع يدك بيد عمك..

ـ لماذا؟!..

ـ ضع يدك بيد عمك كما أقول لك!..

مد العم يده ومد أبو جلال يده.. قالت الأم لزوجها قل لأبي جلال:

- زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله!..

قال الأب ببلاهة:

ـ زوجتك ابنتي على سنة الله ورسوله!..

قالت الأم لأبي جلال:

- قل له قبلت الزواج من ابنتك!..

ضحك أبو جلال وقال:

- كيف ذلك وهل تريدون أن تزوجوني زوجتي مرة ثانية؟!..



الأم:

- قل له كما أقول لك وخذ زوجتك وانصرف!..

قال:

- قبلت!.. وساق غنمته أمامه وانصرف بها إلى مخدعه ودموعها ما زالت تنهمر على خديها، فلم يزعج نفسه ويسألها عن سبب هذه الدموع.. وهي تقول له:

- إنني لست زوجتك الآن، فقد حصلت على الطلاق، وهاهو قرار الحكم.. حرام عليك أن تقترب مني الآن.. لكن آذانه قد أصابها الصمم، فأمضى ليلة حيوانية بحتة ليس فيها من الإنسانية شيء..

ـ ألو قمر قلبي معك يا حبيبتي.. ماذا ستفعلين الآن؟..

ـ آه يا صديقتي.. ما سأفعله الآن هو التالي: سأبعد عن هذا الوحش الهائج مباشرة وسألتجئ إلى خطيبي فهو بانتظاري الآن في المحكمة لنعقد قراننا وسأتزوجه رغمًا عن الجميع، ولن تكون هناك دموع قهر ومذلة فلن أباع وأشترى بعد اليوم.. إلى اللقاء يا هيام، سأتصل بك فيما بعد وأخبرك بكل جديد.. إلى اللقاء!..

٣٣- ريـاضي

يافطـة كبـيرة علقت على بنـاء كتب عليها (نـادي الأبطال الريـاضي).. سـيارة ذات لوحة خضراء كتـب عليها (الجيش) وقفـت في منتصـف الطريـق، أمـام باب النـادي، ترجـل منها عنـصران، ركضا مسرعين يفتحـان الباب لرجل في بداية العقد الخامس من عمره، نزل من السـيارة، مشـى بتـؤدة وكأنه يحمل جبلين على منكبيه، بعد بضع خطوات التفت إلى الوراء مقطبًا:

ـ هات الشنطة يا حيوان!..

ـ حاضر سيدي!..

ـ وين بوط الرياضة يا حيوان أنت الثاني؟!..

ـ هون هون سيدي!..

وينطلقان خلفه كخادمين مقهورين، وهما يتمنيان في قرارة نفسيهما لو أن قنبلة ذرية تسقط فوق رأسه لتريحهما منه!..

هـو يظـن أن السـيد والده قد خلـف له هؤلاء الشـباب الذيـن جـاؤوا ليخدموا الوطن، هـم عبارة عن عبيـد خُلِقوا لكي يخدموه..



يتأمـلان نظراته، حركاته، لفتاته، هل سـيصدر أي أمر؟ إنهما لا يسـتطيعان أن يتأخرا في تنفيذ ما يطلب منهما - المعلم - وإلا.. وإلا..

يدخـل من باب النادي، يمشي كطاووس مزهو بريشـه، ينظـر يمنـة ويـسرة نظرات بـاردة تنـم عـن الملـل أوالتعالي، يتحـرك العنـصران بسرعة خوفًـا من أنه يريـد أن يصدر أمرًا ويفوتهـما سـماعه، ينظـر إلى الأمـام، يتابع مشـيته، يدخل بهو النادي، يبتسم لموظف مكتب الدخول ابتسامة صفراء باهتة، يمشي باتجاه المشـلح كي يخلع ثيابه العسـكرية ويرتدي ثياب الرياضة..:

ـ افتح الخزانة يا حيوان، خذ السترة علقها في الخزانة، انتبه للرتب أن (تتجعلك).. ولك يا حيوان علقها كويس!..

ـ حاضر.. حاضر سيدي..

ـ علـق البنطـال.. خـذ البوط.. هـات البيجامـا.. هات المشـد.. هات بوط الرياضة.. العمـى في عيونكن العمى كل شـغلة لازم قلكـن هات.. هـات؟..، مـا بتفهمـوا تتصرفوا

لوحدكـن؟.. وقّـف إنت هون قـدام الخزانـة، لاتتحرك ولا حركة حتى ارجع.. وإنت التاني الحقني..تعال..

دخـل إلى صالة الألعاب الرياضية وراح يتنقل من جهاز إلى آخـر وكأنـه نحلة تتنقل من زهرة إلى زهرة.. سـاعة كاملة في التجوال بين الأجهزة ولم تنْزل منه قطرة عرق واحدة، بينما العنصر المرافق كان يسبح في عرقه..

المدرب:

ـ أرى يا سـيدي بعد هذه الفـترة الطويلة من التدريب لم يتحسن جسمك، ولم يصبح شكله رياضيًا؟!..

ـ الحـق على هـذا الحيوان اللي معـي!.. كل ما بدي أتمرن أي تمريـن بيقـلي: عنك يا سـيدي لا تحمل شيء أنـا بحملهن عنك، قال من شان ما يعذبني.. قال!..



٣٤- شجرة التيـن

في شرفـة منْزلـه المطلة على حديقة عامـة، في منطقة المزة، جلسـنا نتجاذب أطراف الحديث، لاحظـت وجومه وشرود ذهنه، ونحن نرتشـف الشاي بكؤوس كبيرة كالتي يشرب بها الأخوة المصريون ونستعملها نحن في دمشق لشرب الماء،قلت مداعبًا:

ـ كأس الشـاي هذا يكفي لاغتسـال نفر يعمل في منجم فحم.

بابتسامة باهتة، ونظرات زائغة أجاب ببرود:

ـ تنوعت الكؤوس والشاي واحد...

منجي بو حمزة، إنسـان يدخل قلبك دون اسـتئذان، ولو كنت تراه للمرة الأولى، حلو المعشر، سريع البديهة، تحس بأن عينيه تشتعلان ذكاءً وفطنة، واللهجة التونسية تمتطي صهوات حـروف كلماته فتضفـي على حديثه نوعًا من السلاسـة، رغم أنه في بعض الأحيان يحاول التكلم باللهجة السورية، فيكون



لقاح اللهجتين لهجة ثالثة تنبهر لها الأذن، وتطرب لها النفس، فلا يسعك وأنت تستمع له، إلا أن تبتسم في وجهه ابتسامة الرضا.

ـ أولًا: الحمد لله على عودتك إلينا بالسلامة، ثانيًا: إنني أرى اليوم في عينيك قلقًا لم أعهده من قبل!.. فما الذي يختبئ وراء الأكمة؟..

ـ هناك شيء ما قد تبعثر... شيء ما قد اجتث من جذوره... وهل نستطيع يا صديقي أن نحيا بلا جذور؟..

ـ ما هذه النغمة الحزينة التي تعزفها؟!.. وأنا الذي عهدتك تلون حياتك بألوان الفرح!..

ـ آه يا صاحبي... الحقيقة أنني قد ذهبت إلى تونس لكنني لم أجد تونس..

ـ ماذا؟!.. وهل تونس قافلة تتنقل في الصحراء، والالتقاء بها ضرب من الحظ؟!..

ـ تونس.. محفورة في قلبي.. في روحي.. هي ذاكرتي هي طفولتي.. هي الأحرف الأولى التي درجت على لساني.. هي

صبـاي الذي ترعـرع فيّ... هي أنا في بسـاتينها وينابيعها هي معشوقتي في سهلها وجبلها وشجرها...

صمَـتَ فجأة ثم أجال طرفه بين أشـجار الحديقـة المقابلة وكأنه يفتش عن شيء ما، حمل كأس الشاي ثم رشف منها رشفة كمن يتذوق الشاي لأول مرة في حياته.. ثم بادرني قائلًا:

ـ هل تعرف يا صاحبي بأن الإنسان مهما تقدمت به السن يبقى طفلًا؟..

قلت ضاحكًا:

ـ مـا أجمـل أن نـرى طفـلًا في الخمسـين أو السـتين مـن عمره!..

ـ لا تضحـك يا صاحبي فإنني مازلـت أحمل هذا الطفل بـين جوانحي، إنه ينتحب الآن ألا تسـمع نحيبـه؟.. ألم تقرأ آثار هذا النحيب على وجهي؟.. إن وجه الطفل مرآة لما يدور داخل شغاف نفسه!..

ـ لاحظـت وجومك وشرودك وتبلبـل أفكارك، إذ إنك كنـت تحدثني عـن تونس وفجـأة رحت تحدثنـي عن طفلك الذي يتربع بين جوانحك ولا أدري ما الرابط بينهما..

ـ صدقت... إن أفكاري مشوشـة!.. وذلك بعد أن شُوّه الطفل الذي بداخلي.. أجل لقد شوهوه..

صمت فترة ليست بالقصيرة وهو ينظر داخل كأسه، وكأنه يستقري الغيب كقارئة الفنجان، رفع رأسـه ونظر إلي نظرة من يريد أن يبوح بسر قد أثقل كاهله ثم بادرني قائلًا:

ـ أنـا متأكـد بأنـك تفهمنـي جيـدًا، ولن تسـخر مني!.. لذا فإنني سـأفضي لك بمكنونات قلبـي... آه يا صاحبي لقد قطعوا شجرة التين!..

ـ شجرة تين؟!..

ـ أجـل شـجرة التين هذه، هـي طفولتي وصبـاي.. هي ذاكرتي المحفورة في حنايا ذاتي.. هي جذوري الممتدة في تراب تونس، لا تستغرب إنها تعني لي الكثير..

ـ شجرة التين؟!..

ـ سـأحاول أن أرسـم لك الصـورة قدر المسـتطاع فهذه الشـجرة كانت تتوسـط سـاحة قريتنا الصغـيرة، كانت كبيرة جدًا، ذات أغصان ملتفة عملاقة، تسـدل ظلالها على مساحة كبـيرة مـن السـاحة، وعندما كنـا صغـارًا كنا نتسـلقها بخفة

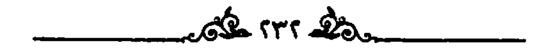
لسعادين، لاعبين، فرحين، مسرورين، ونساء القرية كن يرتدن ظلالها صباحًا بعد أن يذهب أزواجهن إلى أعمالهم فيقمن مجتمِعات بمساعدة بعضهن البعض في الأعمال المنزلية فهذه تجرش القمح على رحى قديمة، وتلك تنقي العدس، وأخرى تساعد جارتها في تقطيع البقدونس وتقشير البطاطا، وأخريات يثرثرن ويضحكن والسعادة تفوح من الجميع كما يفوح العبير من الورد، إضافة إلى مجموعةٍ من الدجاج تتنقل بينهن تلتقط الحب بمناقيرها غير خائفة ولا فزعة، وترى في الصورة قطة غافية على أحد الأغصان مسترخية على أنغام سيمفونية عصافير الدوري التي تبدأ باكرًا وتُختتم عند غروب الشمس، وكلب باسط ذراعيه.. هرب إلى الظل من حر الشمس. هذا المنظر يستمر من الصباح حتى الظهيرة أما ما بعد العصر فكان حضن الشجرة الملاذ المحبب لرجال القرية، فتحت أغصانها الملتفة كانت العيون تتصافح والأرواح تتعانق والمحبة تسربل الجميع بردائها، وهكذا كان الجميع رجالًا ونساءً يبدون كعائلة واحدة بل كجسد واحد، هذا غيض من فيض مما كان يحصل تحت تلك الشجرة..

صمت فجأة ثم نظر إليَّ نظرة محاولًا أن يستطلع فيما إذا كانت أحاسيسه قد وصلت إلي كما يشعر بها بالضبط أم أنه قصّر في نقل الصورة، لكنني بقيت صامتًا أحثه بنظراتي أن يستمر في رسم صورته.. بنظرات زائغة وكمن يروي حلمًا مزعجًا تابع قائلًا:

ـ اليوم... وبعد أن بترت ذاكرتي... عفوًا بعد أن بترت الشجرة... أتدري ماذا حل محلها؟!.. آه لقد وضِع نصُب حجري صلد أصم لا أدري إلى ماذا يرمز!.. لقد استُبدلت الموت بالحياة!.. أما البيوت البسيطة التي كانت تحيط بالساحة فقد حلَّت محلَّها هي الأخرى أبنية طابقية لا يعرف فيها الجار جاره، وأصوات السيارات والدراجات النارية حلت محل عصافير الدوري التي هجرت المكان..

دمعة حرّى انهمرت رغمًا عنه، انتصبت واقفًا... ربتُّ على كتفه.. ثم قلت مواسيًا ومودعًا:

ـ ألا ليت البشرية تؤوب إلى بساطتها لكي يعيش الإنسان إنسانًا، ولتُزرع الملايين من أشجار التين لتستظل الإنسانية بظلها الظليل..



٣٥- على الرصيف
(أو ساعة شيطان)

العاشرة صباحًا من أحد أيام شهر آب، حرارة الشمس تنبئ بنهار صيفي شديد الحرارة.. سُدَّت منافذ النسيم فبدا الجو خانقًا، رغم أن الصباح لم يحمل عصاه ويرحل بعد.. ثلة من الفتيان والشباب جلسوا على الرصيف يستظلون بظل عمود الكهرباء، لأنهم لم يجدوا شيئًا آخر يستظلون به.. عمود الكهرباء هذا يشبه مسلة مصرية قديمة، أو جذع شجرة حور سوداء بلا أغصان ولا أوراق، ظِلٌّ هذا العمود نحيلٌ كنحوله..

اصطفت هذه الثلة في ظل هذا العمود لتقي الرؤوس فقط من حرارة الشمس، أما الأجساد فلا مكان لها في هذا الظل النحيل، فراحت الشمس تعمل بها عملها..

العيون في المحاجر ترقب المارة، ترقب السيارات العابرة، تنشد القامات متأهبة للركض باتجاه أية سيارة تقف أو حتى تخفف من سرعتها فقط..

حمد يجيل نظره بين رفاقه الذين افترشوا هذا الرصيف، يهز رأسه بأسى ظاهر، يشعل سيجارة، يقول بصوت عال وكأنه يريد أن يسمع العالم أجمع:

ـ الله يلعن أبو هالعيشة، الحيوانات تعيش عيشًا أفضل من عيشنا، وكل شيء متوفر لها، ونحن مطروحون على الرصيف ولا أحد ينظر إلينا وكأننا حيوانات جرب.. يا شباب أنتم تعرفون أنني درست وتعبت وتخرجت من الجامعة قسم الفلسفة.. ومع ذلك فإنني أجلس على الرصيف مثلكم وكأنك يا أبا زيد ما غزيت..

خلف.. شاب أسمر لوحته الشمس فزادت من سماره، يعدل من جلسته لشعوره بخدر يسري في رجله من أثر الرصيف القاسي.. يكز خاصرة حمد بقبضة يده الخشنة قائلًا:

– قل الحمد لله، البعض لا يستطيع أن يأتي إلى المدينة وقاعد بالقرية، ويحسدنا لأننا أتينا إلى العاصمة..

ـ لك!.. على ماذا يريد أن يحسدنا على هذه القعدة على الرصيف؟!.. لك!.. مؤخراتنا اهترأت من هذه القعدة..



نظر إلى هذا الظل الظليل الذي قاعدين فيه!.. آه أين شجر قريتي؟.. أين.. أين ترابها المعطر بعرَق أجدادنا؟.. هل تعرف أن التراب في القرية حنون وناعم؟.. ليس كمثل هذا الإسفلت والبلاط القاسي!.. آه كم لعبنا بذاك التراب ونحن أولادٌ صغار!.. كم جلسنا تحت ظل الأشجار وقت الغداء!.. هل تتذكرون يا شباب يوم جئنا خمسة أو ستة أنفار وجلسنا للغداء وكل منا فتح زوادته، وإذ الجميع قد جلبوا زيتونًا فقط، قطفنا البندورة من الحقل يومها وجلسنا للغداء.. آه ما أجمل تلك الأيام!.. ولا أخفيكم القول: نحن حمقى.. ماذا أتى بنا إلى هنا؟.. لنرتمي رمية الكلاب على هذه الأرصفة!..

ننتظر بفارغ الصبر من يأتي لننقل له سيارة رمل أو حصى أو مواد بناء أخرى إلى أحد الطوابق العليا، أو زبونًا يأتي ليهدم جدارًا أو ينقل أنقاضًا.. إننا يا رفاقي نستهلك أجسادنا لقاء دراهم معدودات، نتعامل مع الحصى والرمل والبلوك والسيراميك والإسمنت.. وكلها جمادات قاسية لا حياة فيها.. بينما هناك كنا نتعامل مع الحياة.. أجل مع الحياة، كنا نلقي الحبة في الأرض ونسقيها ونرعاها، كنا نشعر بنشوة غامرة ونحن

نرى الحياة تدب في الحبة وحين يبدأ البرعم يشق التراب متجهًا باتجاه النور.. الله ما أعظم الحياة!.. تتأمل هذا البرعم الصغير وهو ينمو ويكبر، فتعيش معه في طفولته، في صباه، في شبابه، وفي حصاده.. مسيرة عمر نعيشها مع الحبة..

البعض من هذه الثلة قد أثارته هذه الذكريات عن الأرض والزرع فسافر بأفكاره إلى هناك حيث الأهل والصحب والولد، حيث الأرض والبقر والدجاج والأرانب، حيث شقائق النعمان الحمراء التي تزين حقول القمح الواسعة، حيث بتلات القطن البيضاء تمتطي أعالي الأغصان، فتبهج النفس وتسر الناظر..

البعض الآخر ظل مستلقيًا على الرصيف يستمع إلى ما يدور من حديث بلا أي اكتراث..

خلف:

- إذا كانت هذه الحياة لا تعجبك فلماذا لا ترجع إلى القرية؟..

حمد:

- أريد أن أسألك سؤالًا..

خلف:

- اسأل!..

حمد:

- منذ كم يوم لم يدخل جيب أحدنا ليرة واحدة؟..

خلف:

- منذ خمسة أيام تقريبًا..

حمد:

- منذ خمسة أيام ونحن نغدو ونروح، نزرع الرصيف بأجسادنا وكأننا قطعة منه.. ننتظر.. وننتظر..

في هذه الأثناء توقفت سيارة بالقرب منهم.. جاء الفرج.. جاء الرزق.. هرول الجميع باتجاه السيارة، تجمعوا كخلية نحل على نافذة السيارة.. أصوات متداخلة:

ـ ماذا عندك؟..

ـ ماذا تريد أن تنقل؟..

ـ ما هو الشغل؟..

والبعض الآخر حاول أن يفتح أبواب السيارة الخلفية ويندس داخلها ليفوز بالعمل.. لكن صاحب السيارة صاح بنَزق وضيق:

- هيـه ماذا تريدون؟.. ليس لـدي عمل لكم إنما وقفت لأتكلم بالهاتف الجوال!..

تراجع الجميع القهقرى وهم يشعرون بخيبة أمل كبيرة.. إذن إنـه ليس بزبون.. وبـاب الرزق ما زال مقفلًا عاد الجميع إلى أماكنهم السـابقة يظللون الرأس بظـل العمود، وعاد حمد لمتابعة حديثه:

ـ أتـرون هـذه هي حياتنا وهـذه خيبتنـا، زرعْنا على هذه الأرصفـة الانتظارَ والأمل فحصدنـا الخيبة، وهناك في القرية زرعوا الحب في التراب واليوم يحصدون.. إنه آب.. إنه وقت الحصاد.. لا بد لي من العودة.. لابد أن أعودا!..

صوتان يعلوان، يقطعان على حمد حديثه:

ـ أبعد عني قليلًا.. كم أنت قليل الذوق!..

ـ إيه.. ماذا؟..

ـ إنك تدفعني خارج الظل!..

ـ أي ظل هذا؟.. أنا لم ألمسك..

ـ بل لمستني!..

ولكمه في وجهه لكمة قوية.. رد الآخر عليه بلكمة مماثلة، واشتبكت الأيدي وعلت الأصوات وانقسمت الثلة إلى مجموعتين، راح كل واحد منهم يكيل للآخر ما يستطيع من الضربات واللكمات.. شيء ما قد حدث بينهم، لعلها القشة التي قصمت ظهر البعير، فتفجر الملل.. تفجر الانتظار.. تفجَّر الفراغ.. تفجر الفقر.. تفجَّر الوجع..

الأصوات ما زالت تعلو، لغط كبير، احتشد الناس.. حاول البعض أن يستعمل السلاح الأبيض (الرفش والمعول).. لكن أصحاب الخير منعوا استعماله فيما بينهم..

بعد قليل كان الجميع في مخفر الشرطة يكتبون تعهدًا بألا يعتدي أحدهم على الآخر..

ـ والله إنني أحبه ولا أعرف لماذا ضربته!..

ـ آه يجب أن أعود إلى القرية..

ـ الله يلعن أبو الشيطان!..

ـ ساعة شيطان ومضت..

ـ أرجو ألا يصل هذا النبأ إلى القرية..

ـ هل حقًّا ساعة شيطان ومضت؟!..

٣٦- في الظـل

لقاء حار، عناق طويل، يد كل واحد منهما تربت على ظهر الآخـر.. الأول يلبس سروالًا أسـود فضفاضًا والآخر يلبس بنطالًا أبيض ضيقًا يكاد يختلط بما تحته، ونظارات شمسية تحجب عينيه بالكامل.. كلمات تتدفق فتزيد من حرارة اللقاء والعناق.. صاحب السروال معاتبًا بدعابة:

ـ أين أنت يا رجل؟.. منذ زمن بعيد لم نرك..

ـ مشاغل.. الدنيا مشاغل.. يا صاحبي..

ـ أية مشاغل هذه التي تبعدك عنا كل هذه السنوات فأنا منذ انتهاء دراستنا لم أعد أراك!..

ـ الظروف يا صديقي.. الظروف صعبة والوقت ضيق بل وضيق جدًا فالحياة دوامة ونحن نعيش هذه الدوامة بكل ذرة من كياننا، ولكن لم تقل لي كيف حالك أنت؟..

ـ كما ترى على أحسن حال.. صفاء ونقاء ولا وجود لتلك الدوامات التي تتكلم عنها، وفي وقتي متسع كبير

طالعاتي ولزياراتي، فوقتي منظم جدًا، فقد زرتك أكثر من أربع مرات، وكنتُ في كل مرة أرجع بخفي حنين فصديقي رجل الأعمال غير موجود باستمرار ومشغول دائمًا..

ـ أجل وقتي كله عمل وحركة.. أليس هذا أفضل من الفراغ الذي تعيشه هنا مع الأرض والزراعة والدواجن، أيليق بشاب مثقف مثلك أن يترك ركب الحضارة ليعيش عيشًا بدائيًا؟.. أأستطيع أن أسمي هذا هروبًا؟.. لماذا تبتسم؟..

ـ أبتسم يا صديقي لأنك غير متفهم لمعنى الحياة.. أجل يا صديقي لقد اقتلعك طوفان الحضارة التي تدعيها من جذورك وألقى بك في عبابه، فأنت في جوف الحضارة كما تدعي، ولكن اعْلُ برأسك فوق هذا الخضم الذي يجرفك، والذي يبتلعك، لترى زيف تلك الحضارة المدعاة، لترى أن هذا البريق الأخاذ الذي شدك وخلب لبك، إنما هو لمعان زائف، لمعان نحاس وليس لمعان ذهب.. هل سنظل وقوفًا؟.. تعال نجلس تحت تلك الشجرة فإن ظلها الوارف يغري الانسان بأن يطيل الجلوس تحتها، ويتأمل خيوط الشمس المتسربة من بين أوراقها.. إنها جلسة شاعرية.. آه.. آسف إن بنطالك

الأبيض الضيق لا يسمح لك بأن تجلس على الأرض، ألم أقل لك إن هذه الحضارة قد ابتلعتك، بل لقد قيدتك بسلسلة من ذهب، وتقودك وأنت مغمض العينين.. اجلس.. اجلس يا صاحبي على هذا الجذع المقطوع فإنه ككرسي.. وتعال لنقارن بين عالمي الذي تقول عنه إنه بدائي وبين عالمك المتحضر!..

ـ قارن يا فيلسوف عصرك.. قارن.. يبدو أن الجو هنا قد منحك فلسفة خاصة..

ـ لا تسخر يا صديقي فالجو الذي تتكلم عنه ساخرًا يحمل في ذرات هوائه رائحة هذه التربة الزكية.. يحمل رائحة هذه الأزاهير المنتشرة هنا وهناك، الهواء هنا يا صديقي المتحضر نقي صحي نظيف، والأشجار هنا تتراقص على نغمات حفيف أوراقها، البلابل تصدح بما وهبها الله من صوت شجي، والفراش الحالم يتهادى متنشيًا بين الأزهار، والنحل تراه صاعدًا هابطًا يجمع رزقه من رحيق الأزهار.. أليس هذا سحر بالله عليك؟..

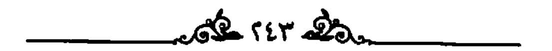
ـ شاعرية حالمة لا محل لها في عصرنا هذا، فعصرنا عصر الجد والنشاط والعمل..



ـ دعنا نكمل الآن المقارنة وبعدها سأرد على كلامك هذا..

ـ أكمل يا سيدي أكمل!..

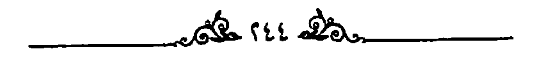
ـ الجو عندك في مدينتك المتحضرة جو يعطره الدخان وهباب الفحم، فدخان السيارات والمصانع كله يصب في رئتيك المسكينتين اللتين تتغذيان بهذا الهواء المسموم، فلو أنك مشيتَ عشر دقائق في شارع من شوارع مدينتك وبعدها حاولت أن تنظف أنفك الشامخ هذا، فلا بد أنك واجد منجمًا من هباب الفحم داخله، إن لم تتاجر بهذا الهباب وتبيعه وتبعد عنه فإنه سوف يتاجر بحياتك ويبيعك بثمن بخس.. أما الشمس التي اختبأت منها يا صاحبي بين الجدران، فقد حُرِمْتَ بابتعادك عنها خيرًا كثيرًا أنت عارف به بالطبع، لاحظ أن عينيك لم تقدرا على مواجهة نور الشمس، فأخذتِ النظارة الشمسية ربع وجهك،لقد ألفت عيناك العتمة.. وما أجمل النور والعيش به.. أما هذهِ الأصوات التي تسمعها هنا من حفيف أوراق الشجر إلى زقزقة عصافير إلى أزيز نحلة إلى رفيف فراشة، فالبديل عنها عندكم أصوات سيارات..



وجلبة وضجيج وأصوات آلات لا ترحم وموسيقى صاخبة تثير الأعصاب أكثر من أن تريحها، وفي هذا الجو الصاخب تجرون جريًا لاهثًا لجمع الثروة وتحقيق أرباح مادية، لتتباهوا وتتفاخروا، ناسين أن وريقات عمركم تذبل وريقة.. وريقة.. وتسقط منكم الأيام يومًا بعد يوم، فلن ينفعكم عندها كل ما جمعتم، المهم يا صديقي أن تعرف كيف تعيش عمرك، لا كيف تصرفه.. أعود لأعلق على كلامك بأن عصرنا هذا عصر جد ونشاط وعمل.. أنا معك بهذا الكلام، وهاأنذا أعمل هنا في أرضي بجد ونشاط كما ترى ولكن لا يعني هذا أن ألغي الأحاسيس الرقيقة التي يحملها الإنسان بين ضلوعه ولا أن ألغي الإنسان داخلي، فأتهافت تهافتكم المادي هذا فيضيع الإنسان ويترعرع الغول..

ـ مهلًا يا صديقي ما هذه الحماسة؟.. أتراني جئت أستمع إلى محاضرة النقاش بها غير مسموح به؟..

ـ لا.. بإمكانك أن تناقش وتطرح كل ما يجول في فكرك..



إنك ناسٍ يا صديقي كل ما قدمته و تقدمه هذه الحضارة من مبتكرات تخدم الإنسان وتحقق له عيشًا كريمًا أفضل وتؤمن له سبل الرفاهية والعيش الرغد..

ـ أنا لستُ ضد الحضارة التي تخدم الإنسان وإنما أنا ضد الأسلوب الذي نأخذ به هذه الحضارة أفلا ترى معي أننا نتمسك بقشور هذه الحضارة ناسين أن هناك لُبًّا.. أن هناك جوهرًا.. يجدر بنا أن نعرفه ونعمل به لنقول عن أنفسنا إننا نسير في الركب الحضاري؟!.. ألا ترى أن تمسكنا بهذه القشور الحضارية يضرنا أكثر مما ينفعنا بكثير؟..

ـ الحقيقة أننا ما زلنا في بدايات طريق الحضارة.. والحق معك، من المفروض أن يلتفت الإنسان إلى الجوهر، من غير أن يُعنَى بالسفاسف والقشور..

ـ قلنا يا صديقي إننا مع الحضارة التي تسعى لإسعاد الإنسان ورفاهيته، ولكن ألا ترى أن هذه الحضارة تعمر وتبني بيد لتعود وتخرب وتهدم باليد الأخرى؟..

ـ كيف؟..



ـ ألا تـرى إلى ذلـك التسـابق في التسـلح؟.. ألم تسـمع عـن القنابـل الذريـة والهدروجينيـة والنووية، ألم تسـمع عن الصواريـخ؟.. ألم تسـمع عـن مئات الأطنان مـن المتفجرات المعدة لكل فردٍ يعيش على سطح الكرة الأرضية؟.. ألم تسمع عـن الأسـلحة الجرثومية؟.. وعن الأسـلحة الكيماوية؟.. ألم تسـمع؟.. ألم تسمع؟.. آه.. أسلحة تدمير لم تكن لتخطر على بالِ عفاريت.. لمن أعِدَّت كل هذه الأسـلحة (الترفيهية)؟!.. أعدت لإبادة الإنسـان، لإفنائه، ألا ترى أن الإنسـان في هذه الحضـارة يفعل كالسـمك: الكبير منه يـأكل الصغير؟.. فهل تسمي هذا حضارة؟..

ـ آلـة الحرب يـا صديقي كانت في السـابق بدائية ولكنها موجـودة ولا ذنـب للحضـارة بذلـك ولقد تطـورت بتطور العلـم.. فهـل تريد سـيادتك أن نستكشـف الفضـاء والعالم الخارجي بصواريخ ومركبات غاية في التطور وتكون وسائل الدفاع والحرب هنا على الأرض بدائية؟ أهذا معقول؟..

ـ لا.. لا.. يـا صاحبـي غير معقول إطلاقًـا، فطريقة قتل الإنسان وإبادته من الواجب هي الأخرى أن تتطور وتُصْرف

لما أعلى الميزانيات سعيًا وراء التوازن العسكري.. وهناك المئات بل الألوف تموت يوميًا من الجوع في أفريقيا وفي بقاع شتى من العالم!.. يا له من عدل حضاري!.. ما بك أراك تفرك جبينك هل هربت الأفكار من رأسك؟..

- لا.. إنني مُنْصِت لك، أكمل، أفرغ شحنتك.. لماذا تضحك؟..

- أضحك لكلمتك (أفرغ شحنتك).. وهل اعتبرت كلامي هذا كله عبارة عن شحنة سأفرغها وينتهي الأمر.. لا يا صديقي العزيز فالذي تقول عنه إنه شحنة معشّش في كل زاوية من زوايا نفسي، وإلا لما كنتُ أفسد عليك زيارتك لي للاستمتاع بالطبيعة وهدوئها وأزيد دوامتك التي تعيشها دوامة أخرى من أجل شحنة.. آه.. نسيت أن أصب لك الشاي فإنه ما زال ساخنًا.. تفضل!..

- إنه شاي لذيذ جدًا لم أذق مثله منذ زمن طويل!..

- إنه مغلي على الجمر!..

- إنه بالفعل رائع!.. لماذا تحملق بالأرض هكذا؟..



ـ أتلاحظ أن شايًا مغليًا على الجمر قد لفت نظرك؟ كيف بك وأنت تنتشل رغيف خبز القمح من التنور مباشرة ومقلاة من الباذنجان المقطوف من شتلته الأم مباشرة، وسلطة خضارها أيضًا طازجة.. أنا متأكد أنك ستستمتع بهذا النوع من الطعام أكثر من (الهمبرغر والسكالوب والسباغيتي والكورن فليكس)، بل صحن مجدَّرة يا صاحبي وبصلة تهرسها بقبضة يدك وأنت جالس على بساط الأرض الأخضر أهنأ ألف مرة من جلوسك إلى طاولة السفرة.. والشوكة والسكين بيدك، وأطباق عليها مملوءة بأنواع الطعام.. أول ما تحتاج إليه قبل تناوله هو أن تترجمه إلى العربية أولًا..

ـ أجل يا صاحبي لقد افتقدنا البساطة ويا للأسف، وامتلأت تلافيف مخنا بتعقيدات لا عد لها ولا حصر.. نسينا مأكولاتنا الشعبية (الكشك والبرغل ببندورة والحراء بإصبعو والست زبئي والفتوش والتبولة).. الواقع يتوق الإنسان إلى تلك المأكولات البسيطة كثيرًا..

ـ الأهم من ذلك أنه بضيعان البساطة ونمو التعقيد والتسابق المادي ترعرع غول دمر النفوس، ترعرع حقد،



ـمت ضغينة، فشت كراهية.. أين الحب يا صاحبي الذي كان يلم شمل النفوس؟.. أين الحب الذي كنا نعيشه بكل ذرة من كياننا ويدفعنا نحو الخير والتآلف والسلام.. هل تعلم أنه عندما كان يذهب أي شخص من هذه القرية إلى المدينة ويغيب حتى ساعة متأخرة من الليل تهب القرية بأكملها لتفتش عنه.. لقد كانوا لا يهنأ لهم عيش ولا يغمض لهم جفن حتى يجدوه.. أما اليوم وعبر هذا الخضم الحضاري يضيع الأخ، يضيع الأب، تضيع الأخت، تضيع الأم، يضيع الإنسان.. وليس هناك من يقلق أو يهتم.. فلكلٍّ مشاغل وهموم خاصة تجرفه بعيدًا..

هل سنظل نتكلم ونتكلم.. قم، قم يا صاحبي واقطف قليلًا من الباذنجان الطازج، وأنا سأشعل الحطب وإلي.. إلي بالمقلاة ولا تنسَ خبز التنور!..



٣٧- في عمر الزهور

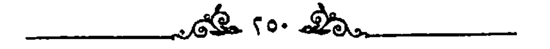
رمقني بنظرة بريئة طفولية، ملؤها الاستعطاف.. حرَّك فرشاته بين يديه حركات حاول أن تكون سريعة ليظهر براعته، فقَرَعَتِ الصندوقَ الخشبي الموجود أمامه، فصدر عنها صوت وكأنه دقات قلب مضطرب النبضات، أتعبه الشقاء المبكر، وانفتحت شفتاه الصغيرتان فوقعت على مسامعي كلمات لم تكتمل سلامة نطقها بعد:

- بويا.. بويا!..

تسمَّرت قدماي على بلاط الرصيف الموحل، حاولت انتزاعها ببطء والمضي في طريقي لكن براءة طفولته جعلتني أقف متأملًا ذلك الوجه الطفولي البريء الذي خط فيه الشقاء المبكر حزنًا داخليًا مبهمًا.. انتزعت قدميَّ بصعوبة وسرت نحوه..:

- اتفضل يا أستاذ بفرنك بفرنكين بقد ما تريد!..

وضعت قدمي على صندوقه الخشبي الصغير وأنا أتامله مليًا من ذروة رأسه إلى أخمص قدميه..



راعني فيه شحوب وجهه واصفرار عينيه واختضاب يديه الصغيرتين بالسواد ناهيك عن النوافذ المفتوحة في ثيابه لتطل منها أجزاء جسمه البضة وتصارع البرد القارس..

دفعني فضولي للتحدث اليه:

- قديش عمرك عمو؟..

أجابني لاهثًا وهو منهمك في عمله:

- ست سنين..

- ألم تتعلم في المدرسة؟..

هز رأسه باتجاه الخلف علامة النفي..

- ولِمَ لم تتعلم؟..

رفع حاجبيه الصغيرين نحو الأعلى:

- ما بعرف أبي قال لازم اشتغل..

ونقر على نهاية الحذاء علامة الانتهاء وانصرفت بخطًا متباطئة ولسان حالي يردد:

- فقر جهل مرض.. ثلاثة أشباح مخيفة..

سرت متاملًا الرصيف الذي أسير عليه فرأيت حشدًا من الزهور البرية، حشدًا من البراءة الطفولية تجلس على الرصيف بل وتسد الرصيف لكثرتها، تضرب بأطراف فراشيها الصناديق الخشبية بأيد مخضبة بالسواد..

٣٨- مجبرًا.. ينحني النخيل

طعنت العفة في مكان عفتها.. اغتيلت الطفولة في مهدها.. اغتصبت الأنوثة.. ورميت الكهولة بما يقصم ظهرها.. ويفقدها حكمتها.. تحجرت الدموع في المآقي.. العيون شاخصة مذهولة، وصواريخ كروز وتوما هوك تفجِّر الأرض نارًا.. طائرات بعيدة عن الرؤية بالعين المجردة تصب جام غضبها على أرض البراءة والحضارة، تشعل ليل بغداد وتزلزل أرضها، تدفن أطفالًا وشيوخًا ونساءً تحت الأنقاض..

آلة الحرب الحديثة ذات التكنولوجيا العالية التي اخترعها الانسان.. تبيد الإنسان!.. تقتله تمزقه إربًا إربًا، أشلاء متناثرة، تعانق تراب وطن يغتصب.. العيون تنظر والقلوب زرع فيها الحزن والهم والخوف والقلق..

صاح طفل بملء براءته:

- ما ذنبي كي أشوَّه، أن تقطع لي يد.. رجل.. أن تقلع لي عين..آهٍ!.. ما ذنبي لم أقترف ذنبًا لم أؤذ أحدًا.. أنا

لطفولة التي يتشدق الجميع بمحبتها وحمايتها ورعايتها.. إنني اليوم أداس.. أهان.. أُقصَف بأعتى الأسلحة المدمرة، بهذه الصواريخ وهذه القنابل.. بل وبما يدعونه أم القنابل، قد اخترع كل ذلك من أجل إسعادي ورعايتي!.. فيا لها من سعادة ويا لها من رعاية!..

تنادي الصبية:

- أحمد.. كاظم.. حنَّان.. هيا إلى الملجأ!..

الأرجل تسابق الريح، العيون يلفها فزع وحقد ظاهران، الأنفاس تتلاحق.. تدافع على باب الملجأ.. دوي انفجارات.. حمم تتساقط من السماء كوابل المطر..

- اسمع!.. هذا الانفجار أقوى من سابقه..

- أجل يا كاظم إنها انفجارات مرعبة..

- لماذا يقصفوننا، ماذا يريدون منا.. البلد بلدنا.. لماذا جاؤوا إلى أرضنا؟..

- بالله عليك يا أحمد ألا تعرف لماذا جاؤوا؟.. ألم تسمع والدي حين قال إنهم جاؤوا لينهبوا ثرواتنا ويأخذوا نفطنا، ويزهقوا أرواحنا بعد أن يأخذوا اللقمة التي في فمنا؟!..



ـ هـل هم فقراء إلى هذا الحـد، وليس عندهم طعام حتى جاؤوا ليأكلوا طعامنا؟..

شـيخ أثقلت ظهره السـنون وأخذت الحـرب العراقية- الإيرانية إحدى سـاقيه، وتركـت ندوبًا ظاهرة في وجهه، نظر إلى الصبية وعلى محياه ابتسامة ساخرة قائلًا:

- إنهـم ليسـوا فقـراء، لكنهـم أدنيـاء يـودون أن يأكلوا طعامهـم وطعـام غيرهـم.. يـا أولادي كل شيء في واقعنـا عبـث.. مسرحيـة تجـري أحداثهـا الآن ورسـم دخولهـا هو أرضنـا وعرضنا ودماؤنا.. أجل يا أحبائـي الصغار إننا ندفع ثمنًا غاليًا..

صمت لحظة ثم تابع:

- لا تؤاخـذوني فحـرارتي مرتفعـة.. وأنا أهـذي من أثر هذه الحمى اللعينة، ها أنذا طائر مقصوص الجناح لاأسـتطيع الطيران.. لا أسـتطيع الدفاع عن بلدي فأنا مربوط إلى أرض هـذا الملجـأ الرطـب الكريـه!.. اعتدت أن أقف في الشـمس السـاطعة كالطـود الشـامخ، أفتـح صـدري للريـح، أهـزأ بالرصـاص والقنابل والطائـرات والصواريـخ، البلد غالٍ يا



أبنائي.. والحرية.. آهٍ.. الحرية!.. الحلم الكبير الذي عشش في نفوسنا.. وتقنا إلى ممارستها، لكننا لم نستطع أن نمارسها.. فالأفواه كانت مكممة والحرية كانت مبتورة الأطراف، جوفاء من الداخل.. أما اليوم فإنني أرى أن هذه الحرية قد ذبحت وتذبح بنعال الأمريكان على ضفاف دجلة والفرات.. آهٍ يا أبنائي إننا نفقد أغلى شيء.. إن الحرية تستل من جسدنا الآن كما تستل الروح.. العصفور في القفص و الأجنحة مقصوصة فأين الطيران؟!.. أين الأجنحة القوية التي ترفرف عاليًا في السماء؟!..

سقطت دمعة حارة من عين الشيخ ثم استدرك قائلًا وهو يمسحها بطرف كمه:

- لا تؤاخذوني يا أبنائي!.. فالمسنون يحبون الكلام كثيرًا أليس كذلك؟..

نظر الصبية إلى الشيخ وهم يرون وجهًا يتصبب العرق منه وآثار الضيق بادية عليه..

يتابع الشيخ حديثه و قد أخذت الحمى منه كل مأخذ:

ـ التتـار قادمون يأكلـون.. ويحرقون الأخـضر واليابس مكتبـة بغـداد.. تسـبح في دجلة وتصبـغ ماءه بلـون الموت.. الخلافـة العباسـية بكل حضارتهـا وعلومها تذروهـا الرياح، ضعـف بعد قـوة وذل بعد سـيادة.. الحجاج يـرى في العراق رؤوسًا قد أينعت وقد حان قطافها..

يقطـف منها و يقطف ويقطف.. علي بن أبي طالب يُقتَل بضربة سيف مسـموم بيد آثمة والحسين تنهال عليه السيوف من كل جانب ويسافر رأسه بعيدًا.. إلى دمشق تبكيها العيون وتـضرب لأجلهـا الصدور.. طبول النصر دقـت يا أحبائي، راياتنا رفرفت عاليًا في القادسـية انتصب سعد بن أبي وقاص شامخًا يزف البشرى لأمير المؤمنين عمر..

العـرق يتقاطـر من ذقـن الشـيخ، وأجفانه شـبه مطبقة، ومع ذلك أعصابه مشـدودة وفي مخيلته فرسـان وخيل وحلبة معركة.. لم يعد يسـمع صـوت الانفجارات الهائلـة التي تقع خـارج الملجـأ، ولا همهـمات الموجوديـن حولـه وتضرعهـم إلى الله.. فصـاح بصـوت كأنه نبَع من سـاقه المبتـورة وانطلق كالسهم ليخرج من فمه مدويًا:

ـ انتبهـوا لقد عاد المغول.. لقد عاد التتار لقد عادوا بكل وحشيتهم ليخربوا.. ليدمروا.. ليقتلوا.. لينهبوا.. آهٍ ستسقط بغدادا!..

وفجأة انطفأ صوت الشيخ وراح في إغماءة لفتت إليه أنظار الجميع.. تدافع الجمع ليروا ماذا حصل له.. أصوات..

ـ طبيب!.. ألا يوجد طبيب؟!..

ـ حرارته مرتفعة جدًا..

ـ أعطني ماء.. أجل ماء..

ـ اغسل وجهه.. ضع كمادات على بطنه..

ـ هاك قطعة من قميصي بللها بالماء وضعها على بطنه..

ماء دجله يتقاطر من ذقن الشـيخ.. عيون مثقلة الأجفان بدأت تتفتح رويدًا.. رويدًا.. حرك جسـمه ببطء شـديد بعد أن اسـتعان بعـكازه الخشـبي.. نظر إلى الجمـع المتحلق حوله وابتسم ابتسامة ساخرة وقال:

- أعـرف أننـا لم نعـد نسـتطيع أن نجتمـع يومًـا عـلى شيء واحـد، ولا حتـى الآلام تسـتطيع أن تلمنـا.. فكيـف

اجتمعتم؟!.. ثم أشاح بوجهه عن الجمع وهمهم بكلمات ليست مفهومة..

الأمريكان يحرثون رمال الصحراء العراقية بدباباتهم الثقيلة وآلاتهم الحديثة ينهبون الأرض نهبًا، يقصفون.. يدمرون.. يقتلون.. أم قصر تقاوم، البصرة تحاصر، النجف وكربلاء تستغيثان.. الأرض الطاهرة المقدسة تدنس شبرًا شبرًا.. وأشجار النخيل القوية تنحني لعاصفة الشر مشدوهة، نهر دجلة بمائه الغزير وخيره يشق الأراضي العراقية متجهًا جنوبًا نحو البحر، والأمريكان بشرورهم يعاكسون التيار متجهين شمالًا باتجاه بغداد..

الجميع ضاقوا من وجودهم في هذا الملجأ فأخذ بعضهم يتجاذب أطراف الحديث، معبرين عما يجيش في صدورهم في تلك اللحظات..

الأول:

– آه لو كان عندنا غطاء جوي للقنا هؤلاء الغزاة درسًا لن ينسوه أبد الدهر..

الثاني:

- وأيـن الغطاء الجـوي فطائراتنا قديمـة.. وليس لها أي عمل في هذه الحرب..

الأول:

- إنهـم يدخلـون في الصحـراء.. والصحـراء أرض مكشوفة، كنا نستطيع اصطيادهم كالعصافير..

ثالث:

- ولمـاذا تريد أن تصطادهم كالعصافـير، دعهم يدخلوا ويخلصونا من هذا الطاغية الذي كمم أفواهنا وكبت حرياتنا، وتنعم هو بقصوره الرئاسية، وتركنا نشتهي لقمة العيش..

الأول:

- أنـت خائـن!.. أتريـد للأمريـكان أن يحتلـوا بلدنـا.. ويدنسـوا أرضنـا وينهبوا ثرواتنا، ومهما يكـن فالقائمون على النظام هم أولاد بلدنا..

الثالث:

- أي ثروات هذه التي تتكلم عنها والتي لم ننعم بها يومًا.. فسواء علينا إن بقيت في أيدي النظام أو ذهبت للأمريكان..

الثاني:

- يقول الأمريكيون بأنهم سيحرروننا من النظام ويجعلوننا بلدنا حرًا ديمقراطيًا ويرحلون.. فننعم نحن ببلدنا وثرواتنا..

ضحك الشيخ بسخرية وجسده يختلج كل جزء فيه، وعيناه ترمقانهم بنظرات حزينة، ثم صرخ بصوت عالٍ وكأنما يريد أن يسمع العالم كله:

- زيوان البلد ولا قمح الجلب!.. زيوان البلد ولا قمح الجلب!.. أتفهمون؟..

صمت الشيخ وساد هدوء في الملجأ، ووجم الجميع وهم يفكرون..

أحدهم أدار مفتاح المذياع.. وزير الاعلام يعقد مؤتمرًا صحفيًا:

- الأفعى الملتوية التي تعبر الصحراء وتتقدم باتجاه بغداد سنقطعها إربًا إربًا.. هؤلاء العلوج الأوغاد.. الأوباش.. سنجعلهم ينتحرون على أسوار بغداد.. بغداد ستكون مقبرتهم.. اليوم أحرقنا لهم عشر دبابات بطواقمها في القاطع

لأوسط، أسقطنا لهم طائرة أباتشي ببندقية صيد قديمة، أسقطها فلاح بسيط من أبناء شعبنا.. (تصفيق وصرخات فرح داخل الملجأ..).

- الأباتشي تسقط ببندقية صيد!..

- عشر دبابات بطواقمها!..

- الحبل على الجرار!..

- مقبرتهم على أسوار بغداد!..

أصوات تعلو وتخفت.. الصبية الثلاثة: أحمد، وكاظم، وحنّان يتحلقون حول الشيخ وقد جلس جلسة الراوي..

- سأقص عليكم يا أبنائي حكاية غريبة قد لا تستسيغونها، إنها لا تتكلم عن الشاطر حسن ولا عن السندباد ولا عن ابن بطوطة ولا هي من حكايا ألف ليلة وليلة.. اسمعوا وستعرفون.. بل دعونا نسميها حكاية لعبة العسكر!..

- كان يا ما كان وليس بقديم الزمان، في يوم من الأيام أصبح العالم كله قرية صغيرة وفي أحد الأحياء التي تتوسط هذه القرية كانت هناك بيوت متلاصقٌ بعضُها مع بعضٍ.. وكل بيت فيها يمتاز بغناه في ناحية من نواحي الحياة

أحدهـا كان يمتاز بصناعة السـجاد العجمـي الممتاز، والثاني لديه أشـجار نخيل باسـقة مثمرة وزيت وفـير يبيعه للأحياء الأخـرى، وأمـا الثالث فـكان بيتًا صغـيرًا لبائع زيـت، إذ إن هـذا البيـت مبنـي على بحـر من الزيـت لـذا كان صاحبه من أغنـى الأغنيـاء.. في شـمال هذا الحـي كان يوجـد راعي دببة بيضاء مشهور بقوته وسطوته،كان يحاول دائمًا أن يمد جسور الصداقـة مع بعض هـذه البيوت الغنية علـه يحظى بشيء من ثرواتها.. وأحيانًا يكشر عـن أنيابه.. وعلى الطرف الآخر من النهـر وبعيدًا عن هذا الحي كان هناك عسـكرٌ رعـاةُ بقر، لهم بيـت مليء بالثروات، يعيشـون عيشًـا رغدًا هنيئًـا.. ولهم من القوة والسـطوة والجبروت ما يرهبون بـه الأحياء الأخرى.. كانوا يتسـابقون في التسلح هم ورعاة الدببة، كلٌّ يحاول بسط هيمنتـه عـلى جزء مـن أجزاء القريـة، فكانوا يشـكلون كفتي ميزان ترجُـح إحداهما أحيانًا، وتطيـش أحيانًا أخرى.. رعاة البقـر كانوا يحلمـون بموطئ قـدم في الحي الأوسـط، لعديد من الأسـباب فراحوا يسـلحون أصدقاءهم صانعي السجاد كـي يكونـوا يدهـم اليمنـى في هـذا الحـي.. فقويـت شـوكة صانعـي السـجاد حتى باتوا قوة لا يسـتهان بها، ويحسـب لها

لف حساب.. وأما رعاة الدبية فراحوا يدعمون أصحاب أشجار النخيل، ويسلحونهم تسليحًا قويًا أيضًا.. وفي يوم من الأيام تغيرت الأحوال وانقلب صانعو السجاد من أصدقاء لرعاة البقر إلى أعداء لهم.. فأُسْقِط في أيدي رعاة البقر فراحوا يفكرون في طريقة لإفناء هذه القوة الموجودة بين يدي صانعي السجاد، فلجؤوا إلى أصحاب النخيل وراحوا يدعمونهم وأوغَروا صدور الطرفين بعضِهم على بعضٍ حتى نشبت الحرب بينهما، وكانت حربًا طاحنة مدمرة، دامت ثماني سنوات تحطمت بها قوة الطرفين، ولم يكن هناك منتصِر في هذه الحرب.. فراح رعاة البقر يفكرون ثانية بموضع قدم هذه المرة.. فقرروا ألا يدعموا أو يسلحوا أحدًا، وأنهم يجب أن يكونوا هم بأنفسهم في هذا الحي، وأهل الحي هم الذين يطلبونهم للقدوم.. كيف؟.. راحوا يلعبون لعبة ذكية خبيثة.. فأوعزوا لأصحاب النخيل أن بيت بائع الزيت هو جزء من بيتكم وهو حق لكم ضائع يجب أن تستردوه، فدخل أصحاب النخيل منْزل جارهم بائع الزيت وعاثوا به فسادًا، واستولوا على كل شيء فيه.. وهنا صاح بائع الزيت مستنجدًا برعاة البقر الذين أتوا مسرعين متلهفين ليطردوا ما وصفوه

باللص الذي اجترأ على بيت جاره.. فقاموا بطرده، وأقاموا في بيت بائع الزيت يتنعمون بزيته.. في هذه الأثناء قُتِل أحد كبار رعاة الدببة فساءت حالهم، وانقلبت قوتهم إلى ضعف، وتمزق شملهم، فضاعت هيبتهم، وسقطت سطوتهم..

وبعد ذلك.. تنحنح الشيخ وعدّل من جلسته على أرض الملجأ الصلبة.. وعيون الصبية ترمقه بترقب وأصوات الانفجارات ما زالت تسمع داخل الملجأ.. صاح أحدهم ضجرًا:

- إلى متى ستستمر هذه الغارة، كاد الفجر أن يبزغ..

رد عليه رجل آخر:

- أن يموت الإنسان فوق الأرض خير من أن يموت تحت الأنقاض.. سأخرج من هذا الملجأ اللعين..

صوت انفجار يختلف عن سابقيه، تمسك الصبية بثوب الشيخ واقتربوا منه كثيرًا.. عاد الشيخ لمتابعة قصته وكأن شيئًا لم يحدث:

– وبعد ذلك فكر رعاة البقر لماذا لانتوسع ونحن القوة الوحيدة الضاربة التي لا يبارينا فيها أحد؟.. فراحوا

يتحرشـون بصاحـب النخيل: أنـت تزعجنا.. أنـت تقلقنا.. أنت تشـكل خطـرًا على جيرانك.. أنت تملك أسـلحة مدمرة يجب أن تتخلص منها.. أفرغ جيوبك نريد أن نفتشك..

يستجيب صاحب النخيل ويستجيب ويتنازل ويتنازل.. يتسـلل رعاة البقر إلى بيته يخربون.. ويقتلـون.. ويُذِلّون.. لا يرعون إلًا ولا ذمة..

قذيفـة مدوية تسـقط فوق الملجـأ.. تتبعثر الأجسـام إلى أشلاء.. غبار يعمي البصر والبصيرة.. الشيخ ليس بحاجة إلى عـكازه بعد اليوم.. يحاول الصبية الخروج من تحت الأنقاض والتخلص من ألسـنة النيران.. ينجون.. تنشق عنهم الأرض ليكونوا أشـجار نخيـل لا تحنيها الريـاح، والحرية في عيونهم جذوة تحت الرماد..

تسللت الأفعى..

فغرست أنيابها في قلب بغداد..

وأفرغت سمها كله..

فبغداد الآن بلا أسوار!..



٣٩- مستر (جو)

ستصل الطائرة في الساعة الخامسة يجب أن نكون في المطار الرابعة حتى يتسنى لنا الاستعداد لاستقباله..

ـ هل أنت متأكد أنه سيصل على هذه الرحلة؟..

ـ أجل.. أجل.. لقد وصل إلي فاكس بهذا الخصوص.. آ.. الرحلة رقم ٤١٥ س.ت تاريخ ٢٠/ ٩/ ٨٥ القادمة من لندن..

ـ هل اتصلت بالمطار وتأكدت من ساعة الوصول؟..

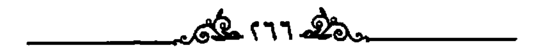
ـ نعم.. رئيس الحركة في المطار مهتم شخصيًا بهذا الموضوع، وقد اتصل بي هاتفيًا وأكد لي ساعة الوصول..

ـ إذن علينا أن نسرع لكي نرتب الأمور..

ـ لا تخف فالأمور شبه مرتبة، لقد أرسلت السائق منذ ساعتين بسيارتي المرسيدس 500S–، وهي جاهزة لتقله إلى البيت مباشرة، وسنكون برفقته في سياراتنا..

ـ أتعرف يا صديقي؟!..

ـ ها.. ماذا؟



ـ أخـاف أن يتغير عليه الطقس، فانتقاله من إنكلترا بلاد الضبـاب والبرد القارس إلى الرياض حيث الشـمس الحارقة والجـو الملتهـب.. أخـاف أن يؤثر عليـه، أو يسـبب له وعكة صحية..

ـ معك حق فهناك فارق كبير بين أجوائنا وأجواء إنكلترا التـي اعتـاد عليها.. ولكنه سـينتقل مبـاشرة مـن الطائرة إلى السـيارة، والسـيارة مكيفة بصورة جيدة، كما أن مكان إقامته المهيأ مريح جدًا، ومكيف أيضًا بأفضل وسائل التكييف.

فعلى الأغلب لن نجعله يشعر بفارق كبير..

ـ إذن هيا بنا!..

وتنطلـق السـيارات مسرعـة وأصـوات أبواقهـا تدوي كسـيارات النجـدة، فتنتشـر السـيارات المارة في الشـارع ذات اليمين وذات الشمال، وكأنها تحت تأثير دفع مغناطيسي..

الشـمس حارقة، زفت الشارع يكاد أن يكون عجينة لينة تحت عجلات السيارات.. المكيفات تزخ إلى داخل السيارات هواءً منعشًا، ينطلق صوت المغنية (ورده الجزائرية) من إحدى المسـجلات وهي تصـدح بأغنية (جيالك هـوا).. يد تمتد إلى

العقـال، تعدل وضعه بصـورة جيدة، تنظـم الثنيات الثلاث الأمامية للشـماغ، فتبـدو وكأنها ثلاثة أنابيـب نفط تنطلق من نقطة واحدة لتلامس الجبهة.. ينظر صاحبها إلى مرآة السيارة، يعجبـه شـكله، ينطلق بسرعة أكـبر، يضع السـواك في طرف فمه، يلامسـه بطرف لسـانه، ثم يبدأ بدعك أسنانه وكأن بين السواك وأسنانه ثأرًا قديمًا.. يشرد فكره إلى المستر (جو) الزائر الجديد، يكلم نفسه:

ـ عسى أن يعجبه السكن الجديد، أرجو أن يألفه بسرعة، سوف أؤمن له كل ما يحتاجه، لن أجعله يشعر بالغربة..

المطار بشـكله الراقـي وبنائه الحديث وأروقته الفسـيحة ممتـلئ بحركـة دائبة، العيـون تتحـرك متلهفة لرؤيـة شيء ما وكأن حدثًا تاريخيًا ما سـيحدث ولن تـراه العيون مرة ثانية.. تنشـد القامات، تقف الأجسـاد على رؤوس الأصابع، ترتفع بعـض الأيـادي ملوحة، تنطلق ابتسـامات، تتحـرك رؤوس ذات اليمين وذات الشمال محاولةً الرؤية..

ينطلـق المدير العام للمطار باتجاه صالة كبيرة يتبعه رئيس الحركـة وضابط الأمن، ومدير الجمارك وثلاثة من المرافقين،

وكبار مسؤولي المطار.. الابتسامات ترتسم على الوجوه، تتناثر كلمات تضفي على الجو نوعًا من المرح، يميل المدير العام على أذن أحدهم:

- بعد قليل سيصل مستر (جو)، ستنعم برؤيته..

- أرجو أن لاتكون الرحلة قد أتعبته..

- هل أنت خائف عليه إلى هذه الدرجة؟

- أجل.. أجل.. وخاصة خوفي عليه من أن لايتحمل أجواءنا القاسية، مع أنني قمت بكل الاحتياطات لتأمين الجو الملائم..

- سيتحمل يا صاحبي.. ولكن قل لي هل قامت السلطات المسؤولة بإرسال كل شهاداته..

- نعم ياصاحبي سيحضر المستر (جو) ومعه كل شهاداته..

- حسنًا.. حسنًا.. لنسرع فعلى الأغلب أنه قد نزل الآن من الطائرة..

تسرع الأرجل في خطوها، تتطلع العيون، تهتز الأجساد، تدخل صالة كبيرة كتب عليها: الشحن الجوي.. ابتسامة عريضة.. صيحة عالية:

ـ جـو!.. جو!.. مسـتر (جـو).. آه هذا أنـت أخيرًا.. في الرياض!.. نايس توسي يو مستر (جو)!..

في قفص متوسـط الحجم يقف المستر (جو)، وهو يلهث مـادًا لسـانه الأحمـر دون خجـل، يحملـق بعينين مسـتغربتين لاتخلـوان مـن الخـوف مـن الوجوه السـمر التـي أحاطت به والأجسـام التـي ارتدت ثيابًا بيضاء مسـدلة مـن الرقبة حتى أخمص القدمين، وأغطية الرأس تلك بعضها بيضاء والأخرى حمراء. لعله يسأل نفسه:

– هل أنا في مشفى أم مصح؟!..

كلـات تنسـاب حـول القفص كمـوج البحـر الهادىء، تبـارك، تهنـىء، تتمنى الإقامة السـعيدة.. تطفو على السـطح كلمات، تنصت لها الآذان:

ـ هـل تدرون؟.. لقـد اخترته من بين عـشرات الكلاب هناك، انظر إلى وقفته.. إلى عينيه.. إلى جسـده.. إنه نمر.. نمر بجسد كلب..

أحدهم يسأل:

– بكم اشتريته؟



ـ آه يا صاحبي إنه لقطة!.. ابتعته بثمن بخس جدًا لم أكن أحلم أن أشتريه به.. تصور بعشرة آلاف ريال فقط!.. ولا تنسَ أنني قبل شرائه قد اطلعت على كل شهاداته الصحية الحاصل عليها من أرقى مصحات لندن.. وكذلك اطلعت على شجرة عائلته وبطاقة ميلاده، لم يفُتني شيء بهذا الخصوص فأنا حريص كل الحرص أن يكون الكلب الذي سيسكن داري ابن عائلة أصيلة وذا صحة جيدة!..

أحدهم يعدل من وضع عقاله فوق رأسه، ويضرب بطرف غطاء الرأس إلى أعلى ليستقرا فوق يافوخه ويقول بخنة ظاهرة:

ـ على مايبدو أن مستر جو جائع!..

ـ أوه!.. الخادم الإنكليزي اللعين!.. لقد أعطيته طعامًا للكلب كلفني أكثر من خمسمئة جنيه إسترليني، ولكن على ما يبدو أن الخادم قد أكل طعام الكلب!..

ـ ماذا يأكل كلبك هذا حتى يأكل الخادم طعامه؟

ـ على الأقل يا صديقي يحتاج هذا الكلب إلى كيلو ونصف من اللحم يوميًا ويجب أن يقدَّم له مطبوخًا وطازجًا، أو خمس

دجاجات صغيرات تقدم إليه بعد تنظيفها جيدًا.. ويفضل أن تكون محمرة!..

يقف على بعد أمتار خادم فلبيني وسائق باكستاني يستمعان إلى الحوار الدائر، فيتلمظ الخادم ويبحلق السائق، ينظر أحدهما إلى الآخر، يتحاوران بلغة عربية ركيكة:

الخادم:

– صديق!.. أنا يعمل عندهم خمسة سنة.. هذا كلب يأكل أحسن مني.. أكل هو أكتر مني فلوس أنا وأنت في شهر..

ـ السائق: أنا ما في مشكلات.. أشتغل كلب عندهم.. يعطوني عشرة آلاف ريال.. أجلس جانب باب.. أقول: هَوْ!.. هَوْ!.. هَوْ.. كل نهار..

يركب المستر (جو) السيارة المرسيدس بعد أن فتح له الباب الخلفي للسيارة وجلس إلى النافذة اليمنى منها..

انطلقت السيارة إلى حيث اللحم والدجاج والتكييف والسكن المريح.. نظرات السائق والخادم كانت تصلي جلد (جو) هذا بغيظ وحقد باديين..



٤٠- مكتب

اشترى شادي مكتبًا هندسيًّا في أرقى المناطق في البلد، وفرشه بأفضل وأغلى الفرش.. عندما جلس إلى المكتب اكتشف أنه يلزمه شهادة هندسة لممارسة هذه المهنة!!..



٤١- و.. استسلم إبليس

في بداية الألفية الثالثة للميلاد، تربع الكائن البشري على عرش الحضارة، متكبرًا متجبرًا مزهوًا بما أنجز، أرجله في الأرض وأنفه في السماء.. وصاح بإبليس:

- هيه!.. أنت!.. إبليس!.. ما رأيك بإنجازاتي؟..

بنظرات كسيرة، وقلب مملوء بالغيظ، وإحساس بالهزيمة، أجاب بصوت خفيض هامس:

- لا أدري ماذا أقول.. في يوم من الأيام أبيتُ أن أسجد لك، فطُرِدتُ بسببك من السموات العلى، وتوعدتك يومها بالغواية، وأن أجعلك تفسد في الأرض.. والواقع أنني بذلت قصارى جهدي على مر العصور والأزمان فكنتُ تارة أنجح، وتارة أخسر..

- أنا أسألك عن إنجازاتي في هذا العصر وأنت تكلمني عن الصراع الأزلي الدائر بيني وبينك، أجبني بوضوح وبلا مواربة..

ـ سأكون صريحًا معك وسأضع لك النقاط على حروفها..

في هـذا العصر بالـذات اختلطت الأمور عـلي ولم أعد أعرف رأسي من رجليّ، لقد سـلكتَ مسلكًا دعوتَه: العلم، ورحتَ تجاهد في سـبيل الوصول إلى أعماقه وأغواره، وبما أنني أعرف أن العلـم يدعو إلى الخير، فكان علي أن أسـد مـا أمكنني ذاك المسـلك، وأدعو إلى الجهل. لكنني أعترف أنك قطعت شوطًا كبـيرًا في بحر العلم واسـتخرجت الكثير من لآلئه وكنوزه مما جعل عالم اليوم يختلف كليًا عن عالم الأمس..

الكائـن البـشري، وبكل مـا أوتي من عنجهيـة تبدت في نيرون وموسوليني وهتلر وبوش، قهقه بصلف قائلًا:

ـ بدأتَ تعرف فضلي وتقدر إنجازاتي العلمية في المجالات كافة، وأنني جعلت الخير يعم المعمورة، والسـعادة والرفاهية ترفرف في سمائها..

ـ على رسلك يا بن آدم لئلا تنفجر عنجهيتك!.. أنا قلت إنـك تقدمـت علميًا، و لم أقل إنك نشرتَ الخير أو السـعادة، لقـد تغلغلتَ في أغـوار الأرض، وغصتَ في أعـماق البحار، وطرقـت أبـواب السـماء بحثًا عـن الثـروات ظنًا منـك بأنها

ستمنحك السعادة.. لكنك غالبًا لم تزرع سوى الشر ولم تجن سوى الشقاء!..

ـ إنك تقول هذا الكلام لشدة غيظك مني لأنك لم تستطع أن تمنعني من الوصول إلى هذا الرقي الذي حققته بعقلي الراجح وفكري الثاقب..

ـ عقلك الراجح!.. أم جنونك الجامح!.. أيهما يا ترى؟!.. أنت يا بن آدم جئت لتعمر الأرض، ولكنك رحت تعمر بيد وتخرب باليد الأخرى، دخلت إلى صميم المادة، ففجرت الذرة وتلاعبت بالإلكترون والنيترون، فكانت نتائجها تقدمًا من جهة وحروبًا ذرية وإلكترونية لا تبقي ولا تذر من جهة أخرى، بل في كل يوم رحنا نسمع عن سلاح جديد سري لا نعرف كنهه ولا نعرف مدى تدميره، لمن أُعِدّ هذا السلاح؟ لمحاربتي أنا وقبيلي؟!.. أم لتدمّر به نفسك بنفسك؟!.. لقد أفسدتَ كل شيء، أفسدتَ البيئة، أفسدتَ الهواء الذي تتنفسه بالملوثات، وبالغبار الذري والإشعاعات، أفسدتَ الطعام الذي تأكله فهو مروي بدماء إخوانك الضعفاء، قطعت الأشجار.. حرقت الغابات.. سرقت اللقمة من فم

لجيـاع لتـأكل بعضها ولتصنـع بالبعض الآخر وقـودًا حيويًا يُسيِّر آلياتك.. آه!.. مرّضتَ الأرض من تصرفاتك فارتفعت درجـة حرارتها، وبدأت ثلوج القطبين بالبكاء، لا أدري أهي تبكـي موتها أم مـوت الملايين مـن بني البشر الذيـن يقضون جراء ظلم بعضكم لبعض، الخير كثير على أرضكم ويكفيكم جميعًا لتعيشـوا سـعداء فلماذا يسرق بعضُكـم لقمةَ الآخر؟.. فيتخم السـارق ويمـوت الآخر؟!.. ما هذا؟.. أتسـتطيع أن تقول لي أين هو العقل؟.. وأين النظر الثاقب؟!..

صمت الكائن البشري ولم يحر جوابًا.. ثم نظر إلى إبليس نظرة مكر ودهاء محاولًا المراوغة كثعلب، والتبريرَ كسـياسي، لكن إبليس لم يترك له مجالًا وبادره قائلًا:

- في الواقع.. لابد لي من الاعتراف بأنك قد عطلت عليَّ عملي، فإنني أبحث بالسراج والفتيل عن إنسـان أوسوس له أو أغويـه فـلا أجـد إلا النادر القليـل، وأجد أن هـذا الكائن البـشري قـد سـبقني بأشـواط طويلة لـذا أعلن وأنـا بكامل الوعي والأهلية القانونية: أنني أرفع الراية البيضاء مستسلمًا.. وأندب حظي العاثر، لأنني أصبحت عاطلًا عن العمل!..

٤٢- ورقة خريفية

- هيه.. هيه... انتبه... انتبه... كدت توقعني أرضًا...
- آسف لم أنتبه لك..

بنَزق بالغ، ولهجة عالية النبرة وحنق شديد صاح قائلًا:

- كيف لم تنتبه؟!.. و قد رأيتني وأنا أشير لك أن تقف، ولكنكم أنتم هكذا سائقي الباصات تتجاهلون الناس ولا تنتظرون الراكب حتى يصعد أو ينْزل بشكل جيد.
- حقك على راسي يا عم، أنا بالفعل لم أنتبه لك..
- ما هذا الكلام؟.. أنا سأعاقبك.. يجب أن تعاقب!..

عندما سمع السائق كلمة العقوبة والعقاب نظر في المرآة ليتبين شخص هذا الراكب الذي يهدد ويتوعد، رأى رجلًا مسنًّا يحبو باتجاه الثمانين من العمر، وقد أخذ الدهر من شعر رأسه الكثير ولم يبق منه إلا القليل، أنيق المظهر يرتدي بزة فخمة، وربطة عنق توحي بأنها من النوع الغالي، ونظارات ذهبية الإطار سميكة العدسات، وخاتمًا ذهبيًا عريضًا يبدو ثقيل الوزن جميل الشكل يزين بنصر يده اليسرى.



وقع نوع من الاحترام في روع السائق، فراح يكرر أسفه، وقد رسم على وجهه ابتسامة عريضة:

- أكرر أسفي واعتذاري.. وتأكد يا عم أنني بطبعي أحترم كل الناس وخاصة المسنين منهم..

نظر الراكب للسائق نظرة حملت الكثير من المعاني، ثم جلس على كرسيه، ومن تحت النظارات الذهبية سرحت نظراته إلى البعيد نابشة في أغوار أيامه الخوالي:

أنا عندما كنت أقف تجاه طابور الجنود في المعسكر، كانوا يرتعدون خوفًا وهلعًا، كانوا يقفون من خوفهم كالخشب المسندة، لا حركة ولا همسة، بل هم مغروسون في الأرض كالأوتاد، يحترمونني لهيبتي وسطوتي، فأنا أبو ليث.. بينما هذا السائق الغبي لا يعرف من هو أبو ليث، يقول إنه يحترمني لسني فقط!.. والأنكى من ذلك أنه يخاطبني بكلمة يا عم!.. يا عم!.. يا لسخرية القدر، رؤوس كبيرة وشخصيات ذات قيمة ومراكز مرموقة كانت تنثني باحترام وتحني رؤوسها، تخاطبني بكلمة: سيدي.. سيدي!.. يجب أن يعاقب هذا السائق بالطبع.. يجب أن يعاقب ليعرف من هو أبو ليث،

فلأتصل بإدارة المرور، أين جهازي الجوال؟.. ها هو.. آه!.. ولكنني لا أعرف كيف أستخرج الأرقام المخزنة ضمنه، فإنني أعرف الرد على المكالمات الواردة فقط، لا بأس سأتصل على الهاتف الثابت فيما بعد.. آهٍ كم تغيرت أحوالي، كنت في السابق أدرب قوات الصاعقة، أدربهم على القتال القريب وعلى القفز من السيارات وهي تسير مسرعة، أما اليوم فالباص تحرك تحركًا بسيطًا فكدت أنطرح أرضًا، أين هو أبو ليث؟.. لقد كنت قوي الجسم، جريء القلب لا أهاب الموت بل كان البعض يصفونني بأن لي قلبًا أصلد من الحجارة، هل أصبحت الآن ورقة خريفية تعصف بها الريح كيف تشاء، أين القوة؟.. أين العزم؟.. أين الشباب؟.. آهٍ ما أجمل أيام الشباب!.. أيام القوة والحيوية، لقد كنت أقفز بالمظلة من ارتفاع شاهق، كنت أحوم في الجو كالنسر أرقب الأرض من علٍ، آه ما أجمل ذاك المنظر، كل شيء كان يبدو لي صغيرًا، فأنا أبو ليث قاهر المظلات، والجميع كانوا يشهدون لي بذلك، مكاني هناك أجل مكاني هناك في العلياء أناطح الجوزاء، لا هنا على كرسي في باص مهترىء يناطحني سائقه، أنا.. أنا أبا ليث أتناطح في آخر أيامي مع سائق!... هزلت!!!..

هديـر البـاص كان مزعجًـا، يصـم الآذان، وأبو ليث لا يســمع منه شـيئًا، بـل كان غائصًا في بحر أفكاره وهو يسـبح عكـس التيار، الباص توقف العديـد من المرات، صعد أناس ونـزل آخـرون، وأبو ليث شـارد النظرات، ينظر مـن النافذة باتجاه اللاشيء والخواطر تجوب أرجاء نفسه:

- أي سـائق هذا!.. لقد كان عندي العديد من السائقين أمثالـه، كانـوا مـن وجلهـم لا يسـتطيعون النظـر في وجهي، ويقفـون كالأصنـام الحجريـة عندما أتجـه باتجاه أي سـيارة، من تلك السـيارات التـي كانت لدي، سـيارات مختلفة النوع والطـراز، كانـت كل واحـدة منهـا مخصصـة لمهمـة: إحداها للصيـد والقنـص، وأخـرى للمنـاورات العسـكرية وكـذا سـيارة للبيـت ولـلأولاد.. آه الأولاد!.. أيـن هـم الأولاد الآن.. إنهـم يعيشـون حياتهـم كل واحـد منهـم في بلـد مـن بلـدان أوربا وأمريكا، درسـوا هناك ويعيشـون هنـاك.. وأنا أعـد الأيام بل السـنوات بانتظـار زيارتهم.. آهٍ كم أنا بشـوق لرؤيتهـم، قلبـي لم يعـد يحتمـل بعدهـم، لقد أصبـح لي قلب رقيق مرهف الإحسـاس، أين ذهـب ذلك القلب القاسي؟.. هـل انحنـى للزمن معترفًـا له بسـلطانه وجبروتـه؟.. لم أكن

أتخيـل أن تتـوفى والدتهم وهم بعيدون ولا يسـتطع أي واحد منهم القدوم للمشـاركة في الدفن، فمشـاغل حياتهم أخذتهم منـا، أم لعل الحضـارة الغربية زرعت في قلوبهم قسـاوة المادة فجعلتهـم يلهثون وراءها وينسـون كل شيء؟.. لكن للأمانة لقـد دعـوني العديـد مـن المـرات كي أذهـب وأعيش معهم ولكنني مثل السـمك لا أستطيع البعد عن بيتي ووطني، هل أخطأت يوم أرسـلتهم للدراسة في الخارج؟.. ألم أتصور أنني سأخسرهم؟.. لكن لماذا لم يعودوا؟.. الطيور المهاجرة تؤوب إلى أعشاشـها مهما طـال سـفرها، والله الوطن حلـو وغالٍ.. الأولاد بعيدون ولا أعرف متى يرجعون وأم ليث ذهبت بلا عودة، وتركت لي خادمة تقوم على شؤوني، وكذلك السيارات فأنا لم أعد أسـتطيع قيادتها فالنظر أصبح ضعيفًا، وحتى تلك الرتـب العسـكرية التي كانت تزين أكتـافي، وكنت مزهوًا بها أشـد الزهو، لم أعد أستطيع ارتداءها الآن وحتى هذا السائق الذي قلت له بأني سـأعاقبه لا أدري الآن كيف سأعاقبه، هل آمـر بحلاقة شـعره على الصفـر؟.. أم.. يا للأسـف لم يعد لي أية سلطة ولو على بضع شعرات، كم من مرة عاقبت بحلاقة الشـعر وبالسـجن!.. أما اليوم فقد لا أستطيع أن أعاقب ولو

خروفًا أعجف بجز صوفه، آه كم تغيرت الأحوال، ولكن هل كل من عاقبتهم سابقًا كانوا يستحقون العقاب؟..

- يا عم!.. يا عم!.. ألا تريد النُّزول، لقد وصلنا للمحطة الأخيرة..

- أجل!.. أجل!..

قال في نفسه: ما زال يخاطبني بكلمة يا عم.. يا عم.. عمى الدببة إن شاء الله. ثم وجه كلامه للسائق:

- هذه المرة سأسامحك ولن أعاقبك، ولكن انتبه في المرة المقبلة!..

نزل من الباص بتؤدة، وبدأت خطواته بالابتعاد، لكن السائق ظل واقفًا يرقب ذاك الرجل الأنيق باستغراب.



الفهرس

تم بحمد الله